الرد الجميل للغزالى

كما حققه الأب روبير شدياق

وفى هذه الطبعة الثانية للنص زيدت بعض التحقيقات والتعليقات

الرد الجميـــل

لإلهيَّة عيسى بصريح الإنجيل

للشيخ الإمام حُجَّة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى

لا حظ[1] بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى[2]

أما بعد حَمْد الله[3] والصلاة على محمد خير خَلْقِه وآله ، فإنى رأيتُ مباحثَ النصارى ، المتعلِّقة بعقائدهم ضعيفة المبانى ، واهية القُوَى ، وَعْرة المسالك ، يَقْضِى المتأمل من عقول جَنَحت إليها عَجَبَه[4] ، ولا يقف من تعقيدها على اليسير من أَرَبه. ولا يُحَوِّلون فيها إلا على التقليد المحض ، عاضِّين بالنواجذ على ظواهر أطلقها الأَولون ، ولم ينهض بإيضاح مشكلها لقصورهم الآخرون ، ظانين بأَن ذلك[5] هو الشرع الذى شرعه لهم عيسى عليه السلام ، معتذرين عن اعتقادهم بما ورد من نصوص يعتقدون أنها قاهرة للفكر[6] ، غير قابلة للتأْويل ، وأَن صَرْفها عن ظواهرها عسير[7] .

---

(١) الأعداد الجانبية تشير إلى مخطوطة أيا صوفيا رقم ٢٢٤٦ بالقسطنطينية مبينة أرقام ورقاتها وحرف —و— أى وجه الورقة وحرف —ظ— أى ظهرها . (ع) . (٢) وبه ثقتى، لم ترد فى كل من ب و ج (٣) فى الأصل : أما بعد حمدا لله والصواب ماأثبتناه (ع) . (٤) قضى منه العجب أى تعجب منه غاية العجب فوق العجب حقه ، ولا أقضى منه العجب أى لا يمكن توفية العجب حقه لعظم الأمر ، وفى المصباح : وقولهم لا أقضى منه العجب ، قال الأصمعى لا يستعمل إلا منفيا . (ع) (٥) فى ج : إن ذلك (٦) فى ب و س : الكفر . (٧) فى ب و س عسيرة

٢و وهم فى ذلك طائفتان : طائفة وهم الأكثر لم يمارسوا شيئاً من العلوم التى يقف بها الناظر على استحالة المستحيل ، فيجزم باستحالة وجوده ، وإيجاب الواجب ، فينفى عدم وقوعه ، وإمكان الممكن ، فلا يعتقد مُحالاً لازماً لطَرَفَىْ وجوده وعدمه . بل ارتسمت فى أذهانهم صُوَرٌ منذ صِغَرهم ،واستمرت بهم الغباوة إلى أن صار ذلك فيهم مَلَكة[1] . فهذه الطائفة بُرْؤُها من دائها عسير .

وطائفة لهم أدنى معقول ، وقد ألَمُّوا بيسيرٍ من العلوم ، فنجدهم ناكصين عن هذا المعتقد ، لايسامحون أفكارهم بمقاربته ، يُعَوِّلون تارةً على تقليد الفيلسوف[2] فى مسألة الاتحاد ، لإعظامهم مايؤدى إليه من هَدْم قواعد تظافرت على ثبوتها صرائح العقول ، فارِّين من هذه المعضلة إلى التقليد المحض ، معتقدين

٢ظ أن الفيلسوف قد حاول العلوم الخفيَّة ، فأبانها جَلِيَّة مُبَرْهَنة ، ظانين بأن مَنْ هذا شأنه جدير بأن يُعَوَّل على أقواله ، ويُقَلَّد فى المعتقدات ، فلذلك ينفصلون عن مسألة الاتحاد بِرَدِّها إلى مسألة تعلق النفس بالجسد .

---

(١) فى ج : صار لهم ذلك ملكة

(٢) يقول الأب شدياق فى تعليقاته فى المقدمة إن الإشارة هنا هى إلى الفيلسوف أرسطو على اعتبار أنه صاحب تعلق النفس بالجسد .(ع) .

ولو راجع هؤلاء المساكين عقولهم ، وتركوا الهوى والتعصب لعلموا أنهم قد نَكَبُوا[1] عن مَحَجَّة الصواب ، وأخطأُوا سبيل الحق لوجوه :

أَحَدُها أنهم جعلوا ذلك من قبيل القياس فغَلَطوا[2] . لأن القياس رَدُّ فَرْع إلى أصل بِعِلَّة جامعة ، هى مناط الحكم . وأى عِلَّة عَقَلها هذا القائل مقتضية لحقيقة التعلق الذى يقول به الفَيلسوف[3] ؟ ثم بعد ذلك يُعَدِّيها إلى ذات البارى ليَصحَّ له القياس .

وإن جعل ذلك من قبيل التشبيه والتمثيل فغلطوا أيضاً . لأن المُشَبَّه به لابُدَّ أن يكون معلوماً مُتَصَوَّراً حتى يكون العلم به مقتضياً للعلم بالمشابهة . والقائل منهم بهذه المقالة لو بذل جهده على أن يأْتى بأَدنى شُبْهَة تَقِفُه على حقيقة النفس وحقيقة التعلق القائل بهما الفيلسوف ، لأَقَرَّ بالعجز عن إدراك ذلك . فكيف يصح له القياس والحقائق غير معلومة له ؟

ثم إن مثل هذا القياس لايسامح الفروعىُّ نفسه فى استعماله . بل هو من الأَقيسة المهجورة ،المسمى بقياس التعقيد ، وهو أن يحاول إثبَات حكم خَفِى فيثبته بما هو أَخفى منه أو بما يُحْتَاج فى إثباته إلى إعمال الفكر ، واستخراجه بالأَدلة الغامضة ، كالنفس القائل بها الفيلسوف التى لايُتَخَيَّل وجودها إلابتعقيدات وغموض فى المأْخذ .

---

(١) نكب من باب نصر أى عدل (ع) (٢) الأصوب : فغلطوا (ع)

(٣) فى ج : يقوله

وإذا كان هذا مهجوراً فى الفروع المبنية على أيسر ظَن فكيف يُعَوَّل عليه فى الأُصول المتعلقة بذات واجب الوجود ؟ وكيف يتم ادعاء ذلك ومناط الحكم لو عُثِر[1] عليه لاقتضى ألايكون
٣ظ للإلٰه تعلق بذات أحد من البشر على حَدّ تعلق النفس بالبَدَن ؟ لأنهم يقولون إن كل نفس تعلقت بِبَدَنٍ فشرط تعلقها به أن يكون بينها وبينه مناسبة وملاءمة لأجلها كان التعلق . والإلٰه جَلَّ اسمه مُنَزَّهٌ عن مثل ذلك .

ثم لو سُلِّم لهم ذلك وأن التعلق الذى حاولوه مُتَصَوَّر على وَفْق الآراء الفلسفية ، لم يحصل لهم به غَنَاءٌ ، ولم ينهض ذلك بمقصودهم فى إثبات الإلٰهية لعيسى عليه السلام. لأن الفيلسوف يقول إن للنفس بالبدن تعلقاً تدبيرياً[2] . وأن اللذة والألم يحصلان لهما[3] ، بواسطة تعلقها به إذا انفعلت القوة الحسَّاسة بالملائم والمُنَافى . ومُحَال أن يُرَاد هذا التعلق بجملته مع ماذُكِر لأن حصول اللذات لذات البارى مُحَال .

بَقِى أن تؤخذ هذه النسبة التدبيرية مُجَرَّدة عن حصول اللذات . وهذا أيضاً غَيْرُ مُجْدٍ لأن الخالق مُدَبِّر لكل فرد من أفراد العالم ، وله إلى كل مخلوق نسبة تدبيرية .

٤و فإن قيل : المراد نِسْبَةٌ ظهر أثرها فى خَرْق العوائد كإحياء الميت وغير ذلك . فيدل إذ ذاك على المقصود . فالجواب : إن مثل

---

(١) فى ج : لو غير عليه (٢) فى ج : النفس بالبدن تعلقها تدبيرياً (٣) فى س: لها (وهذه القراءة أصح لأن الإشارة إلى النفس وحدها – ع) .

هذه النسبة التى يتمكن المُتَصِف بها من الإتيان . بخرق العوائد ثابتة لغير عيسى عليه السلام . فإنهم معترفون بأَن موسى عليه السلام قَلَب العصا ثعباناً . وهل إحياء الميت إلا عبارة عن اتصاف الجماد بالحيوانية ؟ بل هذا أَدلّ على المُعْجز . لأَن جَعْل مالم يتصف بحياة قط حَيّاً أَدَلّ على القدرة من إعادة الشئ إلى حالته الأُولى . ثم انشقاق البحر وجعل كل فِرْق[1] كالطود العظيم من غرائب المعجزات .

وقد شهدت التوراة التى يُصَدِّقونها بأَن موسى عليه السلام أخرج يده بَرْصاءَ[2] كالثلج ، ثم أَعادها إلى لون جسده . وفى أسفار الملوك والقضاة ، وهو من جملة كتبهم العتيقة التى تُقْرأُ
٤ظ فى كنائسهم أَن إيليا واليشع تلميذه أَقاما الميت . وإحياءُ إيليا لابن الأَرملة عندهم غير منكور . ووقوف الشمس ليوشع إلى أن أَخذ المدينة أَربحا من بدائع المعجزات .

ثم لنا من الأَنبياءِ أَنبياءُ لم تُرْسَل ، فما المانع أَن تكون هذه النسبة ثابتة لكل واحد منهم ؟ لكنها لم تظهر لعدم الرسالة المُحْوجة إلى البراهين الصادرة عنها .

دقيقة يجب التنبيه عليها : لفظ الكتاب العزيز : « واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ منْ غَيْرِ سُوءٍ[3] » ولفظ التوراة :

---

(١) اقتباس للفظ القرآنى من الآية ٦٣ من صورة الشعراء «فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم» والفرق الموجة العالية (ع) (٢) فى ج : بده بيضاء (٣) سورة طه آية ٢٢ وظن الأب شدياق أنها الآية ١٢ من سورة النمل مع أن بدايتها مختلفة فى اللفظ فهى : «وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء» .

« وهنّا ياذو مصوراعث كالشولغ[١] ». وتفسير هذا اللفظ العبرانى[٢] بالعربية : « وهذه يدك برصاء كالثلج » . » . صَرَّحت التوراة بالبَرَص . وصريح الكتاب[٣] : بأن بياضها بغير سوء

وفى القلب حسيكة[٤] من ذلك فى بادئ الرأى ، لكن الجمع على الممارس الفهم غير عسير . وبيانه أن البرص عبارة عن عَرَض ينشأ عن[٥] سوء مِزاج ، يحصل بسبب تَلَزُّج بلغم ٥ و تضعف القوة المُغَيِّرة عن إحالته إلى لون الجسد . ومعلوم أن بياض يد موسى عليه السلام ما نشأ عن سوء مِزاج . لأن كل أحد إذا ساء مِزاجه على نهج ما وصفناه حصل له ذلك . وإذا قويت القوة المغيرة أحالته . فحينئذ تذهب خصوصية الإعجاز. بل بياضها إنما كان من قبيل المُعْجِز الخارق .

وشأن المُعْجِز الخارق أن يكون مخالفاً للمعهود المألوف . وإلى هذا المعنى إشارة الكتاب العزيز بقوله : (من غير سوء) . أى أن الله أقدر موسى على أن يجعل يده برصاء[٦] من غير سوء ، وأن يردها إلى لون جسده من غير قوة مُغَيِّرة ليحصل له[٧] بذلك خصوصية بإجراء المعجز الخارق المخالف للمعهود على يده .

---

(١) سفر الخروج إصحاح ٤ عدد ٦ وفى الترجمة العربية : أدخل يدك فى عبك ، والعب فى اللغة العربية الكم أو الردن وهذا مخالف لما جاء فى الترجمة الإنجليزية المعتمدة للكتاب المقدس فهى : put now thine hand into thy bosom. أى . . فى صدرك . (ع) (٢) فى ج : اللفظ بالعبرانية (٣) فى ج : وصرح الكتاب (٤) الحسيكة والحسك الشوك وقد ترجمها الأب شدياق بكلمة صعوبة (ع) . (٥) عبارة : « عرض ينشأ عن » سقطت من ج (٦) فى ج : بيضاء (٧) فى ب : لهم

وإنما يكون مُعْجِزاً مخالفاً للمعهود إذا أتى بالمسبب[١] منفكاً عن سببه العادى الذى لاينشأ إلا عنه . وإلا لم يكن مُعْجِزاً[٢] ثم عَبَّر عنه بالبياض الذى هو من لوازمه . هذا جمع واضح .

ومما يُوهِى معتقداتهم فى هذه المسألة قاعدة[٣] الفيلسوف فى
٥ ظ النفس وتعلقها ، إذ كانوا جازمين بثبوتها . ومستند جَزْمهم حسن الظن بالقائلين بها . وهم غير قادرين على الإتيان ببراهينها ظنًّا منهم أن القائلين بها قد اخترعوا من العلوم الخفية مايرجع الفكر ناكصاً عن إدراكها لخفاء مآخذها ، وصعوبة مبانيها . وأن مَنْ هذا شأنه تكون أقواله مُبَرَّأة عن الخطأ .

فيجب على هذا القائل أن يُقَلِّد الفيلسوف فى أن النُبُوَّات مكتسبة ، وأن العالم قديم لايقبل الكون والفساد ، وأن البارى لايعلم الجزئيات ، وأن الواحد لايصدر عنه إلا واحد ، وأن إله الخلق وجودٌ مُجَرَّد ، لم يَقُم بذاته عِلْم ولاحياة ولاقدرة إلى غير ذلك مما نقضوا به قواعد المتشرعين ، وصَرَّحوا فيه بإكذاب الأنبياء المرسلين .

ومن العجب تقليدهم قوماً يمنعون تصور مايثبت به خصوصية صاحب شرعهم لِنَصِّهم على استحالة انعقاد[٤] الولد من محض منى أُمه ، من غير مشاركة منى رجل ، إما عاقد على رأى كبيرهم
٦ و أو مشارك له فى الجزئية على رأى جالينوس .

---

(١) فى ج : بالسبب (٢) عبارة : « وإلا لم يكن معجزاً » سقطت من كل من ب و س .
(٣) فى ب و س : أن قاعدة (٤) فى ب اعتقاد

فإن حَمَل قائلاً تَعَصُّبُه وهواه المُحَرِّضان له على عدم تركه [ماأَلِفَه قائلاً : إن ماذُكِر قامت البراهين على خطئهم فيه ، فَنَبْقَى[1] فيما وراءه على مقتضى حسن ظننا بهم ، فالجواب أن مَنْ ظهر تارةً خطؤُه وتارةً صوابه ، كانت أقواله ممكنة الخطإ والصواب .

فلا يُصَار إلى تقليد مَنْ هذا شأنه مع عدم الوقوف على مستند أقواله ونبذ أقوال المتشرعين وراء ظهره ، وعدم التفاته إلى التعويل على ظواهر كتابه الدالة على إنسانية صاحب شريعته إلا لنصوص أَبَت التأويل دالة على مايَدَّعونه من الأُلوهية مستعصية على العقول استعصاءً بَيِّناً . كيف ؟ وفى الإنجيل نصوص مُصَرِّحة بإنسانية عيسى عليه السلام المحضة ، ونصوص شاهدة بأن إطلاق الإلَهية عليه على مايَدَّعونه محال . وهذه النصوص فى أوضح[2] الأناجيل عندهم : إنجيل يوحنا بن زَبَدا .

٦ظ وها أنا أذكرها نَصّاً نَصّاً ، مُبَيِّناً فصولها المُسَطَّرة فيه حذراً من المناكرة لأن كتبهم غير محفوظة فى صدورهم . وقبل الشروع فى ذكرها[3] ، فلابد من تقديم أَصلين مُتَّفَق عليهما بين أهل العلم :

أحدهما أن النصوص إذا وردت فإن وافقت المعقول تُرِكت وظواهرها . وإن خالفت صريح المعقول وجب تأويلها ، واعتقاد

---

(١) فى ج : إنما ذكر قامت البراهين . . . فينفى (٢) فى ب و س : أصح
(٣) فى ج : فى ذلك ، بدلا من فى

ن حقائقها ليست مُرَادة ، فيجب ردها إذ ذاك إلى المجاز .

الثانى أن الدلائل إذا تعارضت ، فَدَلَّ بعضها على إثبات حكم ، وبعضها على نفيه[١] ، فلا نتركها متعارضة[٢] إلاوقد أحسسنا من أنفسنا العجز باستحالة إمكان الجمع بينها[٣] . وامتناع جمعها متظافرةً على معنى واحد .

وإذا تقرر ذلك فَلْنَشْرَع الآن فى ذكر النصوص الدالة على التجوّز فى إطلاقه مايوهم الإلهية على نفسه . والنصوص الدالة
٧و على التجوز فى مسألة الاتحاد كقوله : « أنا والأَب واحد » ، « ومن رآنى فقد رأى الأَب ، وأنا فى الأَب والأَب فِىّ » .

ثم نُتْبع ذلك بذكر النصوص الدَّالَّة على إنسانيته المحضة ، ونجمع بينها وبين النصوص المثيرة لهم شُبَهاً نكصت[٤] أفهامهم لقصورها عن تأْويلها ، فعَمُوا بها وضَلُّوا ، بَالغِين فى إيضاحها وكشف الغطاء عن مشكلاتها مبلغاً يرجع معه الحق باهر الرواء ، ظاهر السناء .

النص الأَول :

ذكره يوحنا فى إنجيله فى الفصل الرابع والعشرين[٥] : « أنا والأَب واحد ، فتناول اليهود حجارة ليرجموه ، فأَجابهم قائلا : أَريتكم أَعمالاً كثيرة حسنة من عند أَبى ، ومن أَجل

---

(١) فى ب : نفيها . (٢) فى ب : معارضة

(٣) فى ج : بينهما ، كما أن كلمة : بينهما سقطت من ب و س . (٤) فى ج : ركضت

(٥) هذا النص فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٠ عدد ٣٠ : ٣٦ (ع) .

أى الأعمال ترجموننى ؟ فأجابه اليهود قائلين : ليس من أجل الأعمال الحسنة نرجمك ولكن لأجل التجديف[١] . وإذ أنت إنسان تجعل نفسك إلهاً . فأجابهم يسوع : أليس مكتوباً فى ناموسكم أنى قلت : وإنكم آلهة[٢] ؟. فإن كان قد قال
٧ظ لأولئك[٣] آلهة لأن الكلمة صارت إليهم ، وليس يمكن أن ينتقض المكتوب فبكم أحرى[٤] الذى قدّسه الأب[٥] وأرسله إلى العالم . » (هذا آخر كلامه) .

فنقول : هذا النص بالغ فى تحصيل غرضنا الذى نحاوله فى مسألة الاتحاد ، وبيانه أن اليهود لمّا أنكروا عليه قوله « أنا والأب واحد » ، وهذه هى مسألة الاتحاد نفسها ، ظانّين بأنه أراد بقوله « أنا والأب واحد » مفهومه الظاهر ، فيكون إلهاً حقيقةً ، انفصل عليه السلام عن إنكارهم مُصَرِّحاً بأن ذلك من قبيل المجاز[٦] ثم أبان لهم جهة التجوز بضربه لهم المَثَل ، فقال : « قد أُطلِق عليكم فى ناموسكم أنكم[٧] آلهة ،

---

(١) فى الطبعة التى نشرها الأب شدياق : التجذيف بالذال المعجمة ، وصوابها بالدال المهملة . وفى النهاية لابن الأثير : لاتجدفوا بنعم الله أى لاتكفروها وتستقلوها . وهى بهذا المعنى أيضاً فى صحاح الجوهرى والقاموس المحيط . ولكن فى المنجد : جدف على الله أى تكلم عليه بالكفر وهى بهذا المعنى الأخير تؤدى المراد من كلمة blasphemy فى الترجمة الإنجليزية المعتمدة للكتاب المقدس وكذلك فى ترجمته العربية (ع) . (٢) واو العطف فى : « وإنكم آلهة » لاتوجد فى الترجمة العربية للإنجيل ولا فى الترجمة الإنجليزية (ع) (٣) عبارة : « فان كان قد قال لأولئك » سقطت من ج (٤) فى ب وس وج : فبكم بالحرا هذا ولم نجد فى نص الترجمة العربية ولا فى الإنجليزية مايؤدى معنى : فكم بالأحرى (ع) (٥) كلمة الأب سقطت من س و ح

(٦) فى ج : إعجاز (٧) « إنكم » سقطت من ج

ولستم آلهة حقيقة ، وإنما أطلق عليكم هذا اللفظ لمعنى : وهو صدور الكلمة إليكم وأنا قد شاركتكم فى ذلك . »

وقد ورد مثلُ ذلك فى شريعتنا . قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الحق جَلَّ اسمه : « ولن يتقرب إلىّ المتقربون بأفضل من أداءِ ما افترضتُ عليهم ، ثم لايزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يُبْصِر به ، ولسانه الذى ينطق به ، ويده التى يبطش[1] بها . » ومُحَالٌ أن يكون الخالق حالاً فى كل جارحة من هذه الجوارح ، أو يكون عبارة عنها . لكن لما بذل العبد جهده فى طاعة الله ، كان له من الله قدرة ومعونة ، بهما يقدر على النطق باللسان والبطش باليد إلى غير ذلك من الأعمال المُقَرِّبة . ولذلك يقول مَنْ أقدر شخصاً[2] على أن يضرب بالسيف ولولاه لمَا قدر على ذلك : « أنا يدك التى ضربت بها . » فهذا ضرب من المجاز ، استعماله حسَنَ سائغ غير منكور .

وقد صَرَّح عيسى عليه السلام فى هذا النص بجهة المجاز بقوله : « لأن الكلمة صارت إليهم . » ومُحَالٌ أن يريد بالكلمة لفظاً ذا حروف ، وإنما يريد بالكلمة سراً منه يهبه لمن يشاء من عباده ، يحصل لهم به التوفيق إلى ما يُصَيِّرهم غير مباينين

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أبوهريرة وأخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الرقاق ، انظر صحيح البخارى طبعة منير الدمشقى — القاهرة ج ٨ ص ١٨٩ (ع) . (٢) الأصوب أن تكون العبارة هكذا : ولذلك يقول الشخص للذى أقدره على أن يضرب بالسيف . . . (ع) .

لله عز وجل ، بل يُصَيِّرهم لايحبون إلامايحبه ، ولايبغضون
٨ظ إلامايبغضه ، ولا يكرهون إلا مايكرهه ، ولايريدون إلامايريده من الأقوال والأعمال اللائقة بجلاله . فإذا صار بهم التوفيق إلى هذه الحالة حصل لهم[١] المعنى المُصَحِّح للتجوز .

ويدل على صحة هذا التأويل الصارف إلى المجاز المذكور أنه عليه السلام احترز عن إرادة ظاهر[٢] هذا النص الدال على الاتحاد بقوله : « فبكم أحرى[٣] الذى قَدَّسه الله وأرسله . » فصَرَّح بأنه رسول مُتَبَرِّئاً من الإلهية التى تخيَّل اليهود أنه ادّعاها ، مثبتاً لنفسه خصوصية الأنبياء ، وعلوّ درجاتهم على غيرهم ممن ليسوا بأنبياء بقوله : « فبكم أَحْرَى[٤] الذى قدَّسه وأرسله » أى قد شاركتكم فى السبب المصحح للتجوز ، وفضلتكم بمراتب النبوة والرسالة .

ولو لم يكن ماضربه لهم من التمثيل جواباً قاطعاً لما تَخَيَّلوه[٥] من إرادة ظاهر اللفظ لكان ذلك مغالطةً منه وغِشاً فى المعتقدات ،
٩و المُفْضِى الجهل بها إلى سخط الإله . وهذا لايليق بالأنبياء المرسلين ، الهادين إلى الحق . لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة غير جائز للأنبياء . كيف وفى كتبهم أنه أرسل لخلاص العالم[٦] ؟ مُبَيِّناً مايجب لله وما يستحيل عليه . وإنما يكون مُخَلِّصاً للعالم إذا بَيَّن لهم الإله المعبود . فإن كان هو الإله الذى يجب أن يُعْبَد ، وقد صرفهم عن اعتقاد ذلك بضربه لهم[٧] المَثَل ، فيكون قد أمرهم بعبادة غيره ، وصرفهم عن عبادته .

---

(١) فى ب و س « أصارهم » بدلا من حصل لهم . كما أن كلمة لهم سقطت من ج (٢) كلمة « ظاهر » سقطت من ج (٣) فى ب و س و ج : : « فبكم بالحرا » (٤) ماضربه لهم . . . لما تخيلوه ـ فى ج : ماصيرته لهم . . . لما تحصلوه (٥) فى ج : الخلاص إلى العالم (٦) فى ب بضربهم

والتقدير أنه هو الإله الذى يجب أن يُعْبَد . وذلك غِشٌّ وضلال لايليق بمن يُدَّعى فيه أنه أتى لخلاص العالم . بل لايليق بمن انتصب للإرشاد والهداية من آحاد الأمم ، فضلا عَمَّن صَرَّح بأنه رسول هادٍ مُرْشِد .

فإن قيل : إنما ضرب لهم المَثَل مغالطةً ليدفع عن نفسه مايَحْذَرُه من شرهم ، قلنا : الخوف من اليهود لايليق بمن يُدَّعَى فيه أنه إله العالم ومُوجِد الكائنات .

ظ ٩ فايت شعرى ماذا يقول المعانِد بعد أن لاحت له هذه الحقائق أوضح من فَلَق[1] الصبح ؟ وكيف يتقاعد عن تأويل هذا النص وتأويل أمثاله ، ويَخْبِط خَبْطَ عشواءِ وصاحب شريعته قد أوَّله نفسه ؟

* * *

النص الثانى :

نَصَّ عليه يوحنا المذكور فى إنجيله فى الفصل السابع والثلاثين : « أيها الأب القدوس احفظهم باسمك الذى أعطيتنى ليكونوا معك واحداً كما نحن[2] . »

هذا النص كالنص الذى قبله سواءً مُؤَكِّدا له[3] فى صرفه عن الحقيقة إلى المجاز المذكور . وبيانه أنه عليه السلام دعا الله

(١) فى الأصل : «فرق الصبح» وصوابه فلق الصبح . فى القاموس المحيط الفلق محركة الصبح أو ما انفلق من عموده أو الفجر . وفى النهاية : إنه كان يرى الرؤيا فتأتى مثل فلق الصبح هو بالتحريك ضوؤه وإنارته ، والفلق الصبح نفسه . (ع) (٢) هذا النص فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٧ عدد ١١ (ع) (٣) كلمة له سقطت من ب و س

عز وجل لتلامذته أن يكون حافظاً لهم باسمه حفظاً مثل حفظه له ، ليحصل لهم بذلك الحفظ وَحْدة بالله ، ثم أتى بحرف التشبيه فقال : «كما نحن» أى تكون تلك الوَحْدة كوحدتى معك .

فإن تكن وحدته مع الإله موجبةً له استحقاق الإلهية ، ١٠ و فيلزم أن يكون داعياً لتلامذته أن يكونوا آلهة . وخطور ذلك ببال من خلع رِبْقة العقل قبيح ، فضلًا عَمَّن يكون له أدنى خيال صحيح .

بل هذا محمول على المجاز المذكور وهو أنه عليه السلام سأل الله أن يُفيض عليهم من آلائه وعنايته وتوفيقه[1] إلى مايرشدهم إلى مراده اللائق بجلاله ، بحيث لايريدون إلامايريده ولايحبون إلا مايحبه ، ولا يبغضون إلا مايبغضه ، ولايكرهون إلا مايكرهه ، ولا يأتون من الأقوال والأعمال إلا ماهو راضٍ به مُؤْثِرٌ لوقوعه . فإذا حصلت لهم هذه الحالة حَسُن التجوّز .

ويَدُلّ على صحة ذلك أن إنساناً لو كان له صديق موافق غرضه ومراده ، بحيث يكون مُحِبّاً لما يحبه ، مُبْغِضاً لما يبغضه ، كارهاً لما يكرهه ، حَسُنَ أن يقول : أنا وصديقى واحد .

وقد بَيَّن عليه السلام أيضاً فى هذا النص أن وَحْدَته معه ١٠ ظ مجاز ، وأنه ليس إلهاً حقيقةً بقوله : « ليكونوا معك واحداً كما نحن . » يريد : إذا حصل لهم منك توفيق ، صَيَّرهم لايريدون إلا ماتريده وَحْدَتُهم معك كوحدتى معك ، إذ هذه

---

(١) وتوفيقه سقطت فى ب .

حالتى معك ، لأننى لاأريد إلا ماتريده ، ولا أحب إلا ماتحبه .

وبقوله أيضاً : « أيها الأب القدوس احفظهم باسمك » ، داعياً لهم الإله الذى بيده النفع والضُّر ولو كان هو[1] نفسه إلهاً لكان قادراً على حفظهم من غير أن يتضرَّع لغيره ويسأله الحفظ .

فاعجب لهذه الإشارات التى نَبَّه بها على إرادة المجاز وصرف الكلام عن ظاهره .

وقد صرح بولص[2] فى رسالته التى سَيَّرها إلى قورنثية[3] بمثل ذلك لما فهم المراد من هذه النصوص فقال : « فمن اعتصم بربنا فإنه يكون معه روحاً واحداً[4] . » وهذا التصريح منه يَدُل على أنه فهم عَيْن ما فهمناه[5] . وفهم أن هذه النصوص ليست ظواهرها مرادة .

* * *

النص الثالث :

نَصَّ عليه يوحنا المذكور فى إنجيله فى الفصل السابع والثلاثين[6] أيضاً : « قَدِّسْهم بحقك ، فإن كلمتك خاصةً هى الحق ، ١١ و كما أرسلتنى إلى العالم أرسلتُهم أيضاً إلى العالم . ولأجلهم أُقَدِّس

---

(١) هو ، سقطت فى ب و س (٢) فى ج : يونس (٣) قورنثية أو كورنث مدينة ببلاد اليونان (ع) (٤) كورنثيون أول إصحاح ٦ عدد ١٧ ، وفى الترجمة العربية : وأما من التصق بالرب فهو روح واحد . وفى الترجمة الإنجليزية المعتمدة : But he that is joined unto the Lord is one spirit (ع) . (٥) عبارة : عين مافهمناه . سقطت فى ج (٦) هذا النص فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٧ عدد ١٧ : ٢٢ (ع)

ذاتى ليكونوا هم مقدسين بالحق . وليس أسأل فى هؤلاء فقط ، بل وفى الذين يؤمنون بى بقولهم[١] . ليكونوا بأجمعهم واحداً ، كما أنك يا أبتِ حال فى وأنا فيك ليكونوا أيضاً فينا واحداً ، ليؤمن العالم أنك أرسلتنى ، وأنا أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحداً كما نحن واحد . »

هذا النص واضح جداً[٢] مؤكداً لما قلناه . وبيانه أنه عليه الصلاة والسلام كشف غطاء الشبهة مُبَيِّناً جهة المجاز بقوله : « وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحداً . » أى أن ذلك المجد يَنْظِمُ شملهم ، فتقع أفعالهم جميعاً[٣] ، متظافرة على طاعتك ومُحِبَّة ماتحبه وبغض ماتبغضه وإرادة ماتريده[٤] فيصيرون كرجل واحد لعدم تباين آرائهم وأعمالهم ومعتقداتهم ، كما نحن واحد أى كما أنا معك واحد لأن

١٠ظ مجدك الذى أعطيتنى جعلنى لا أحب إلا ما تحبه ولا أريد إلاماتريده ولاأبغض إلا ماتبغضه ولاأكره إلاماتكرهه و يصدر فى عمل ولا قول إلا وأنت راض به .

وإذا ثبت أن هذه حالته مع الإله دَلَّ على أن من أطاعه فقد أطاع الإله جَلَّ اسمه[٥] ، ومن أطاع الإله فقد أطاعه . وهذا شأن الانبياء المرسلين .

ثم بالغ فى إيضاح جهة المجاز بقوله : « كما أنك ياأبَتِ حال فىّ وأنا فيك ليكونوا أيضاً فينا واحداً . » يريد أن

---

(١) بقولهم . سقطت فى ج (٢) فى ج : وحده بدلا من جداً (٣) فى الأصل جمع والصواب أن تكون منصوبة (ع)

(٤) الأصوب : ومبغضة ما تبغضه ومريدة ماتريده . (ع) (٥) اسمه . سقطت من ج .

أقوالهم وأعمالهم إذا تضافرت واقعة على وَفْقِ مرادك . ومرادك هو مرادى . كنا جميعاً كذات واحدة لعدم تباين الإرادات .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام لم يقتنع بذلك حذراً من تعلق الخيال الضعيف بظواهر هذه النصوص ، فصَرَّح بأنه رسول . فقال : « ليؤْمن العالم أنك أرسلتنى . » ثم بالغ فى البيان فقال : « وليس أسأل فى هؤلاء فقط ، بل وفى الذين يؤْمنون بى ١٢و ليكونوا بأجمعهم واحداً كما نحن واحد » . يريد أن وَحْدته معه ليست مقتضية لإلهيته ، وإلا لزم أن تكون وحدتهم مع الإله الذى سأله أن يكونوا معه واحداً كذلك .

فانظر كم من حُسْن اشتمل عليه هذا النص من صرائح قد صُرِّح بإرادة حقائقها ، وظواهر قد صُرِّح بعدم إرادة ظواهرها ، وتجوزات اقترنت بها مَعَانٍ أَبَتْ أن تُحْمَل على حقائقها ، ومحاسن يَمُرون عليها وهم عنها مُعْرِضون .

ولله دَر القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتُه من الفهم السقيم
ولكن تأْخذ الآذان منه على قَدْر القرائح والعلوم[1]

وقد صَرَّح فى إنجيل يوحنا أيضاً فى الفصل الخامس والعشرين بما يدل على أن هذا التأْويل الذى ذُكِر هو المراد ، فقال : « من يؤْمن بى[2] فليس يؤْمن بى فقط ، بل وبالذى أرسلنى ،

(١) البيتان للمتنبى وهما من البحر الوافر (٢) فى ج : من لم يؤمن بى

ومن رآنى فقد رأى الذى أرسلنى [1] . » لَمَّا جعل طاعته نفس طاعة الإلٰه لزم [2] أن يكون مُخْبِراً عن الإلٰه ، فقال [3] : « ومن رآنى فقد رأى من أرسلنى . » أى أنا أُخبر عنه حقيقةً فأَمرى أمره ونهيى نهيه ، وجميع أحكامى عنه صادرة ، وهذا شأْن الأنبياء الصادقين .

١٢ظ. ومن أوضح ما يُسْتَدَل به على أن حقائق هذه النصوص ليست مرادة ، وأنها محمولة على المجاز السالف ذكره أن يوحنا بن زَبَدَى الإنجيلى المنقولة هذه النصوص من إنجيله ، وهو عندهم من أجَل تلامذته حتى أنهم يَغْلُون فيه فيسمونه حبيب الرب ، لمَّا فهم هذه المعانى المذكورة ، وعلم أن هذه النصوص مصروفة عن حقائقها إلى المجاز المذكور ، قال فى رسالته الأُولى المذكورة فى كتاب الرسائل :

« الله لم يره أحد قط ، فإن أحب بعضنا بعضاً فالله حَال فينا ، ومحبته كاملة فينا ، وبهذا نعلم أنَّا حالُّون فيه ، وهو أيضاً حال فينا ، لأنه قد أعطانا من روحه ، ونحن رأينا ونشهد أن الرب أرسل ابنه لخلاص العالم [4] . »وذكر فيها أيضاً : « من يعترف أن يسوع هو ابن الله ، فالله حالٌّ فيه وهو أيضاً

١٣و حال فى الله . [5] »

(١)إنجيل يوحنا الإصحاح ١٢ عدد ٤٤و ٤٥ (ع). (٢) « لزم» سقطت من ب (٣) « فقال» سقطت من ب (٤) رسالة يوحنا الأولى الإصحاح ٤ عدد ١٢ : ١٤ (ع) (٥) الموضع السابق عدد ١٥ . ويلا حظ هنا استعمال كلمة يثبت فينا ونثبت فيه فى الترجمة العربية الأمريكية الكتاب المقدس . وذلك بدلا من حال فينا وحالون فيه . والأخيرة أدق لأنها فى الترجمة الإنجليزية المعتمدة حيث استعملت عبارة God dwelleth in us وعبارة We dwell in Him ويبدو أن القائمين بالترجمة العربية أرادوا تخفيف معنى الحلول باستعمال كلمة يثبت . (ع)

أطلق هذا التلميذ الجليل عندهم هذه الكلمات مُصَرِّحاً فيها بالحلول ، بقوله : « وبهذا نعلم أنا حَالُّون فيه وهو أيضاً حال فينا . » فإن يكن التلميذ الجليل عندهم فَهِمَ أن الحلول الذى أطلقه عيسى عليه الصلاة والسلام فى النصوص المذكورة مُقْتَضٍ للإلهية . فيكون مُثْبِتاً لنفسه ولغيره الإلهية بقوله : « وبهذا نعلم أنَّا حَالُّون فيه وهو أيضاً حالٌّ فينا . » وهم لايعتقدون فيه ذلك ولا فى أحد من سائر تلامذة عيسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه . فَتَعَيَّن أنه فَهِمَ من النصوص ماأشرنا إليه من المجاز السالف ذكره .

ويدل على ذلك أنه أومأ إلى جهة المجاز بقوله : « لانه قد أعطانا من روحه . » يريد أنه أفاض علينا سِراً وعنايةً ، علمنا بهما مايليق بجلاله ، ثم وفقنا إلى العمل بمقتضاه ، فلانريد إلا مايريده ، ولا نحب إلا مايحبه ، فحينئذ تعود الحالة
١٣ظ جَذَعة[1] فى إرادة المجاز المذكور .

ولكن بقى فى النص الثالث دقائق من المباحث لاتُسْتَخْرَج إلا بفكرة قادحة[2] وقَّادة ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام قال : « وقد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى[3] . » وظاهر هذا اللفظ يدل على العموم لأنه عليه الصلاة والسلام أومأ إلى المجد

---

(١) فى تاج العروس : وأعدت الأمر جذعا أى جديداً كما بدأ . وفى أساس البلاغة للزمخشرى : ومن المجاز : فلان فى هذا الأمر جذع إذا أخذ فيه حديثاً . . وطفئت حرب بين قوم فقال أحدهم : إن شئتم أعدناها جذعة . (ع) (٢) قادحة سقطت فى ب و س .

(٣) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٧ عدد ٢٢ (ع)

المعهود ثم وصفه بقوله : « الذى أعطيتنى . » وهذا ظاهر فى إرادة جميع الأفراد التى تناولها المجد . وبيانه أن القائل إذا قال : أعطيتُ فلاناً الدراهم التى أعطيْتنى أو الهدية التى أرسلت إلى ، كان ذلك ظاهراً فى العموم . لكنا إذا أنصفنا علمنا أن الحقيقة ليست مرادة ، لأن من جملة المجد الذى أُعْطِىَ له النبوة والرسالة ، ومايترتب عليهما من الدرجات والصعود إلى السماء وإقداره على الإتيان بخوارق المعجزات . فهذه حقائق ليست مرادة بالإعطاء . فلابُد من حمل اللفظ بعد ذلك على معنى وإلا لزم تعطيله .

فلم يبق إلا أن يريد بالإعطاء إعلامهم بما يليق بجلال الله
١٤و عزوجل . ثم سأل لهم التوفيق إلى العمل بمقتضاه من الإله القادر على ذلك ، فقال : « قَدِّسهم بحقك . » أى أنا قد أعلمتهم بما يليق بجلالك . وهذه وظيفة الأنبياء المرسلين ، فأرشدهم[1] أنت ووفقهم إلى العمل بمقتضاه ، فإن هذه درجة الإله القادر على خلق الأعمال .

فإن قيل : لِمَ لايجوز أن يكون من جملة المجد الذى أُعْطِى له الاتحاد الذى استحق أن يكون به إلهاً ؟ وقد دل الدليل على عدم إرادته وأنه ليس مُعْطىً ، فيكون غير مراد ، وإن كان مندرجاً تحت لفظ العموم .

---

(١) فى ج : فارسلهم

فلنا : هيهات ههنا تُسْكَب العبرات . وهل الإلهية يمكن إعطاؤها ؟ وهذا مما أجمع العقلاءُ على استحالته . وهل هذا إلا مُصَادَرة على المطلوب من غير إتيان بثبت يُعَوَّل عليه إلاظواهر ؟ وقد حللناها من أيديهم ، وأوَّلَها صاحب شرعهم
١٤ظ معتذراً عن إطلاقها ، ومحترزاً عن إرادة حقائقها .

ومثل هذه المعضلة لايثبت بمجرد الاحتمال مالم تُبَرهِنَ بالبراهين اليقينية لاسيما فى شخص وَضَحَتْ إنسانيته . ثابتةٌ لوازمُها وملزوماتها وذاتياتها من الحيوانية والنطق والإعياء والجوع والعطش والنوم والاجتنان فى الرحم ، والتألم على رأيهم فى الصلب حيث قال : « إلهى إلهى لِمَ تركتنى [1] ؟ » فهذه كلها منافية للإلهية . وكيف يُنْكَر ذلك ؟ وفى إنجيل مرقص : « وفى الغَدْ خرجوا من بيت عَنْيَا فجاع ونظر إلى شجرة تين من بعيد وعليها ورق . فجاء إليها ليطلب فيها ثمرة . فلما جاءها لم يجد عليها شيئاً إلا ورقاً فقط لأنه لم يكن فى زمن
١٥و التين [2] » .

صَرَّح فى هذا النص بإحساسه بالجوع وظَنِّه الشىءَ على خلاف ماهو عليه ، لأنه ظَنَّ أن عليها ثمرة فأخلف ظنه وظَنَّ أن الزمن زمن التين أو ظن أنها تُثْمِر فى غير زمن التين ، وكلاهما ظنٌّ غير مطابق .

---

(١) إنجيل مرقس إصحاح ١٥ عدد ٣٤ ولفظه : « وفى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : ألوى ألوى لما شبقتنى ؟ الذى تفسيره إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ » (ع) .

(٢) إنجيل مرقس إصحاح ١١ عدد ١٢ و ١٣ (ع) .

فإن قيل : فأى فائدة فى تعطيل الشجرة ؟ قلنا : إنما فعل ذلك لِيُثَبِّت تلامذته على إيمانهم ولِيُرَغِّبهم فى الازدياد من الأعمال التى تكون مثل هذا الفِعْل من بعض نتائجها ، لأن الأنبياء والأولياء حين وُعِدوا بالجنة إنما وُعِدوا بها محفوفة بالمكاره ، ومكابدة الجوع والرضى به من المكاره الشداد ، ومكابدة المكاره ربما يقل معها عصام التقوى من العارفين ، ويغلب كثرة من الرعاع[1] فإذا أراهم مثل هذا الفعل الذى هو من نتائج الأعمال الصالحة رَغَّبهم فى الاستكثار من أسبابه ، وحَقَّر فى نفوسهم مصائب الدنيا وآلامها . وليبين بذلك أن
١٥ظ امتحان الأنبياء بالجوع والآلام ليس من قبيل الهوان بهم ولا بمراتبهم بل من قبيل الامتحان والابتلاء . فمن صَبَر شاكراً راضياً قدِر على الإتيان[2] بمثل ذلك .

ويدل على صحة هذا التأويل قوله لبطرس فى بقية هذا النص ، وقد قال له : « يامعلم هذه التينة التى لعنتها قد يَبِسَتْ — إن كان لكم إيمان بالله الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل واسقط فى البحر ولايشك فى قلبه بل يُصَدِّق أن الذى يقوله يكون ، فيكون له[3] » .

كل ذلك دليل على أن يُبْسَها إنما كان من باب كرامات الأولياء ، لأنه قد أثبت لهم بالولاية نقل الجبل وسقوطه

---

(١) فى ج : الرعارع (٢) فى ب : الإتياء . وكلمة الإتيان سقطت فى ج

(٣) إنجيل مرقس الإصحاح ١١ عدد ٢١ : ٢٤ (ع) .

١٦و فى البحر ، وذلك أبلغ من يُبْسها . وقد أتى بمثل ذلك أيضاً فى الإنجيل مُصَرِّحاً به فقال : « الحق أقول لكم إن من يحفظ وصاياى يعمل الأعمال التى أعمل ، وأفضل منها يصنع [1] » .

ويؤكد ذلك تصريح الإنجيل فى هذا النص بالجوع ، وتصريحه بطلب الثمرة فيها . وهذا أيضاً يُبْطل قول من يقول إنما فعل ذلك إعلاماً لهم أنه قادر على إماتة الأحياء ، لأنه يلزم أن يكون واضع هذا النص [2] فى الإنجيل كاذباً فى قوله « فجاع » ، وفى قوله : « فجاء ليطلب فيها ثمرة » — جعل ذلك علّة مجيئه إليها — وهل يكون ما ذهبوا إليه إلاغفلة من عقولهم . لأنه ماجاء إليها إلا ليطلب فيها ثمرة ، كقول القائل : « جُعْتُ فنظرتُ شجرةً فجئتُ إليها لأطلب فيها ثمرةً فلم أجد شيئاً ، فدعوتُ عليها بالجفاف ليُسْتَدَل بذلك على أنى إله قادر على إماتة الأحياء . » هذا من جنس كلام المغفلين ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ عدد ١٢ (ع) (٢) جاء فى ب : « جعل ذلك علة مجيئه إليها . وهل يكون ما ذهبوا إليه غفلة من عقولهم لأنه ماجاء إليها إلا ليطلب فيها ثمرة « فلم أجد شيئاً فدعوت عليها بالجفاف ليستدل بذلك على أنى إله قادر على إماتة الأحياء » هذا من جنس . . الخ . وجاء فى س و ج : « جعل ذلك علة مجيئه إليها. وهل يكون ماذهبوا إليه إلا كقول القائل : جعت فنظرت شجرة فجئت إليها لأطلب فيها ثمرة فلم أجد شيئاً . . الخ .

النص الرابع :

١٦ ظ ذكره مرقص فى إنجيله فى الفصل الرابع والأربعين : « فأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب وحده[١] . »

صَرَّح فى هذا النص بالإنسانية المحضة نافياً عنه العلم المختص بالإلَه . وهذا من أوضح الأدلة على إنسانيته المحضة . ومن هذيانهم حَمْلُهم هذا النص على أن الملائكة والابن كل منهما معطوف على ضمير الساعة ، ويكون تقدير الهَذَيان : أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلايعرفها ولا الملائكة ولا الابن أَحَدٌ إلا الأب وحده .

فاعجب من هذا القول كيف فاتهم[٢] أن صفات الإلَه إذا لم تثبت بالبراهين اليقينية فلا أقل من كونها ظاهرة الدلالة ؟ وانظر كم من بُعْدٍ فى هذا التأويل الذى ينبو عنه السمع ، وكم خولف فيه من ظاهر . ثم إن قائله لما ضاق عليه المجال وقيل له : أى لفظ فى هذا النص يُفْهَم منه السؤال عن الملائكة والابن ليقع[٣] الجواب مطابقاً ؟ جنح إلى الكذب قائلا : إنه علم أنهم يسألونه عن الملائكة والابن فأجابهم دفعة . ثم إن ما أوَّله إنما أوَّله بما ذكر فراراً من نفى العلم المختص بالإله إثباته .

وذلك بعينه موجود فيما ذكره من التأويل ، بل الجهالة فيه أعظم . وبيانه أنه إذا جعل الابن والملائكة معطوفين على

(١) إنجيل مرقس الإصحاح ١٣ عدد ٣٢ . (ع) (٢) فى الأصل : كيف فاتها (ع) .
(٣) فى ب : ليقطع

١٧و ضمير الساعة كان معناه : وأما معرفة عين الساعة ومعرفة حقيقة الابن وحقيقة الملائكة فلايعرف ذلك إلا الأب وحده وهو عليه الصلاة والسلام . وإذا أطلق الابن أراد نفسه ، وإذا أطلق الأب أراد الإله جل اسمه ، فيعود عين مافروا منه وزيادة فى الجهالة لأنه فى ظاهر النص المذكور نَفَى عن نفسه معرفة عين الساعة فقط . وفى هذا التأويل يكون قد نفى عن نفسه معرفة عين الساعة ومعرفة حقيقة نفسه ومعرفة حقيقة الملائكة ، فاعجب من عقول يجب على العاقل أن يحمد الله أن حماه من اختلالها ، ساخراً ممن حاول أن ينفى جهالة دنيا فأثبت جهالة عليا.

١٧ظ فقد وضح أن مخالفة ظاهر هذا النص بما ذكره هذيان يقبح على العاقل أن يُضَيِّع الزمان فى الاشتغال به .

* * *

النص الخامس

ذكره يوحنا المذكور فى إنجيله فى الفصل السابع والثلاثين : « تكلم يسوع بهذا ثم رفع عينيه إلى السماء وقال : يا أَبَتِ قد حضرت الساعة فَمجِّد ابنك ليمجدك ابنُك ، كما أعطيته السلطان على كل جسد ليعطى كل من أعطيته[1] حياة الأبد ، وهذه حياة الأبد أن يعرفوك أنك الإله الحق وحدك والذى أرسلته يسوع المسيح[2] » .

---

(١) العبارة : « السلطان . . . من أعطيته » سقطت فى ج .

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٧ عدد ١ : ٣ (ع)

صَرَّح بالرسالة للمسيح . ولايمكن عود ذلك إلى الناسوت لأن المسيح اسم عندهم لمجموع حقيقة مركبة من لاهوت وناسوت فإن ادَّعى مُدَّع أن ذلك محمول على المجاز لم يَسِدّ[1] كلامُه وكُذِّب بامتناع إطلاق مثل ذلك فى العُرْف . إذ قول القائل
١٨و رأيت حِبْراً وهو يريد الزاج[2] من حيث هو زاج منفكاً عن الحبرية ليس من السداد فى شىء .

هذا كله بعد أن يلجأ إلى بيان أن لغة الإنجيل من أحكامها إطلاق الكل وإرادة البعض . فإن نهض بذلك فما أشرنا إليه جواب كاف لمساواتها اللغة العربية . وإن لم ينهض بذلك فالاعتراض ساقط ، ولاحاجة إلى ماذكر من الجواب . ثم أكَّد ذلك بقوله : « ليعطى كل من أعطيته حياة الأبد » . ثم فَسَّر حياة الأبد فقال : « وهذه حياة الأبد أن يعرفوك[3] أنك الإله الحق وحدك والذى أرسلْتَه يسوع المسيح » . فصَرَّح للإله بالإلهية والوحدانية ، وصَرَّح لنفسه بالرسالة .

وصَرَّح[4] أيضاً بولص الرسول فى حقه حين وصف القيامة فقال : « فحينئذ يخضع الابن الذى أُخْضِع له كل شىء[5] » .

---

(١) سد يسد سداداً استقام وسد فلان أصاب فى قوله وفعله ، وسد قوله وفعله . (ع)

(٢) فى تاج العروس : الزاج ملح وهو من أخلاط الحبر و مصطلحات مجمع اللغة بالقاهرة كبريتات أحد المعادن وترجم الأب شدياق الزاج بأنه Sulfate de fer أى كبريتات الحديد (ع) (٣) فى ب : أن تولك . (٤) فى الأصل : « وتصريح أيضاً بولص » . بيد أن أيضاً تستعمل مع الفعل يقال فعله أيضاً أى مراجعاً ونصب إما على المفعولية المطلقة وإما على الحال صار . وقد فات الأب شدياق أن يصحح خطأ الناسخ (ع) (٥) رسالة بولص الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ١٥ عدد ٢٨ ولفظه فى الترجمة العربية : « ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل » . (ع)

وصفه بالخضوع لله فى القيامة ، وهذا شأن العبيد الخاضعين لعظمة الله ، ووصف الإله بالقدرة على إخضاع كل شىء لعظمته وهذا شأن الإله القادر .

١٨ظ وذكر أيضاً فى رسالته التى سَيَّرها إلى إفْسَس[١] : « ولست أفْتُر من الشكر عنكم والذكر لكم فى صلواتى أن إله[٢] سيدنا يسوع المسيح الأب المجيد يعطيكم[٣] روح الحكمة والبيان[٤] » فصَرَّح بطلب الإعطاء من إله يسوع المسيح . ووصف الإله بأنه الأب المجيد ، وجعله إلهاً للمسيح الذى هو اسم عندهم للحقيقة الثالثة .

وصَرَّح أيضاً فى كتاب الرسائل فقال : « الله واحد هو والوسيط بين الله والناس واحد هو الإنسان[٥] يسوع المسيح[٦] » وصريح الإنجيل أيضاً : « ولاتدعوا لكم معلماً على الأرض فإن معلمكم واحد هو المسيح . ولاتدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد هو الذى فى السماء[٧] ». [وهذا[٨]] دليل على التغاير لأنه وصف نفسه بوَحْدة التعليم فى الأرض ، ووصف الإله

١٩و بوَحْدة الأبوة ، وهو إذا أطلق الأب أراد الإله ، فيكون قد

---

(١) إفسس Ephesus بلدة قديمة قريبة من ساحل آسيا الصغرى على بحر إيجه (ع) (٢) إله فى ج و س : أن يكون إله ، (٣) ويعطيكم فى ج و س أن يعطيكم (٤) رسالة بولس إلى أهل إفسس الإصحاح الأول عدد ١٦ : ١٧ (ع) (٥) واحد هو الإنسان . كذا فى ب و س وكلمة الإنسان زيدت فى س فوق السطر ، وماورد فى ج هو الأقرب إلى نص الرسالة (٦) رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح ٢ عدد ٥ (ع) (٧) إنجيل متى الإصحاح ٢٣ عدد ٨ : ٩ (ع) (٨) زيادة عن الأصل لربط الكلام (ع) .

وصفه بوَحْدة الإلٰهية . ثم أشار إلى جهة العلو بقوله : « فإن أباكم واحد هو الذى فى السماء » . وهذا النص ذكره متّى فى إنجيله فى الفصل السادس والسبعين .

ثم من العجب إنكارهم خضوعه المناف للإلٰهية وهو القائل عند قيام [(١)] عازر وقد رفع عينيه إلى السماء : « يا أَبَتِ أشكرك لأنك تسمع لى ، وأنا أعلم أنك تسمع لى فى كل حين ، لكن لأجل هذا الجمع الحاضر ليؤمنوا أنك أرسلتنى [(٢)] »صَرح بذلك يوحنا فى إنجيله . والقائل أيضاً ليلة الصلب على رأيهم : « إن كان يستطاع فَلْتعْبُر عنى هذه الكأس [(٣)] » . متضرعاً للإلٰه . وقوله عندما صلب على رأيهم : « إلوى إلوى ليماصا فخثانى [(٤)] ؟ »وهذه كلمات عبرانية معناها : « إلهى إلهى لِمَ تركتنى ؟

وأى إلٰه هذا شأنه شك فى استطاعة عبور الكأس [(٥)] ، ورَفَع صوته مستفهماً من إلٰهه لِمَ تركه ، ثم غاير بين إرادته وإرادة إلٰهه
١٩ظ بقوله : « وليس كإرادتى لكن كإرادتك [(٦)] ». هذه الألفاظ مُصَرّح بها فى إنجيل متّى . ثم غاير أيضاً بينه وبين إلٰهه بقوله : « لاتضطرب قلوبكم آمنوا بالله وآمنوا بى [(٧)] ». هذه

---

(١) ابتداء من كلمة قيام إلى القائل أيضاً بعد نحو سطرين ساقط من ج (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١١ عدد ٤١ : ٤٢ (ع) (٣) إنجيل متى الإصحاح ٢٦ عدد ٣٩ (ع) (٤) إنجيل مرقس الإصحاح ١٥ عدد ٣٤ (ع) (٥) عبور الكأس هنا غير واضحة والمقصود بها رفعها عنه كما فى الترجمة الإنجليزية المعتمدة Let this cup pass from me (ع) . (٦) انجيل متى الإصحاح ٢٦ عدد ٣٩ ولفظه فى الترجمة العربية : ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (ع) (٧) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ عدد ١ (ع)

الكلمات مُصَرَّح بها فى إنجيل يوحنا فى الفصل الثانى والثلاثين ثم أوضح المغايرة فقال فى الفصل السابع من هذا الإنجيل :

« إن من سمع كلامى وآمن بمن أرسلنى وجبت له الحياة الدائمة[1] ». فصَرَّح بأَن له مُرْسِلاً ، ومعلوم أَن المُرْسِل غير المُرْسَل ، ثم جعل الحياة الدائمة مشروطة بالإيمان بمُرْسِلِهِ ، وسماع كلامه المُخْبِر به عن الله ، وهذا تصريح بأَحوال الأَنبياء المرسلين ، لقد ظهرت[2] فلا تخفى على أَحد إلا على أَعشى[3] لايبصر القمر .

* * *

النص السادس

ذكره أَيضاً يوحنا فى إنجيله فى الفصل الحادى والعشرين . قال لهم يسوع : « لو كنتم بنى[4] إبراهيم كنتم تعملون أَعمال إبراهيم لكنكم الآن تريدون قتلى [وأَنا][5] إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله » .

٢٠و وفى الفصل أَيضاً : « لأَنى لم أَتكلم بها من نفسى لأَن الأَب الذى أَرسلنى هو أَعطانى الوصية بماذا أَقول وبماذا أَنطق ، وأَعلم

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ٥ عدد ٢٤ (ع)

(٢) العبارة ابتداء من لقد ظهرت . . إلى القمر سقطت فى ج (٣) فى الأصل : إلا على إله ، ولا يستقيم بها المعنى وترجمها الأب شدياق بكَسمة كفيف والأصح كلمة أعشى (ع) (٤) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ عدد ٣٩ : ٤٠ (ع) (٥) زيادة عن الأصل من الترجمة العربية للنص (ع)

أن وَصِيَّته حياة الأبدَ ، والذى أقوله أنا كما أمرنى الأب كذلك أتكلم »[١] .

صَرَّح فى هذا النص بالإنسانية بقوله : « إنسان[٢] كلمتكم بالحق الذى سَمِعتُه من الله[٣] » أى[٤] أنا إنسان ، وصَرَّح بالرسالة وأنه لايفعل إلا ماأُمِر به ، بقوله : « كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله[٥] ». وبقوله : « كما أمرنى الأب كذلك أتكلم » . وقد صَرَّح بولص الرسول برسالته المحضة فى رسالته التى كتبها للعبرانيين فقال : « انظروا إلى هذا الرسول عظيم أحبار إيماننا ، يسوع المسيح المؤتمن عند مُرْسِلِه ، وهو مثل موسى فى جميع بيته[٦] » .

صَرَّح[٧] بأنه من جملة أحبارهم ، وصرح بأن له مُرْسِلاً ، وأنه مؤتمن عنده ، ثم جعله مثل موسى فى جميع بيته . ويريد ببيته[٨] الطوائف الذى أرسل إليهم[٩] يدل على ذلك قوله فى بقية الكلام فى وصف عيسى عليه الصلاة والسلام : « وإنما بيته نحن معاشر المؤمنين » .

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٢ عدد ٤٩ : ٥٠ (ع) .

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ عدد ٤٠ (ع) (٣) لم ترد فى ج عبارة : الذى سمعته من الله . (٤) لم ترد فى ج العبارة التى تبدأ من : أى أنا إنسان . . ونهايتها : من الله (٥) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ عدد ٤٠ (ع) (٦) الرسالة إلى العبرانيين الإصحاح ٣ عدد ٤ (ع)

(٧) صرح . . إلى بيته ، لم ترد فى ج (٨) ويريد ببيته ، سقطت فى ب و س

(٩) الأصوب : الطوائف التى أرسل إليها (ع)

٢٠ظ وإذا ثبت أن المراد بجميع بيته أُمته كان معنى الكلام : وهو مثل موسى فى أُمته . وهذا تصريح بالرسالة المحضة وقد صرح فى هذه الرسالة بما يوضح ذلك فقال : « فإن لكل بيت إنساناً يبنيه والذى يبنى الكل هو الله[1] » . يريد بذلك أن كل واحد من هذين الرسولين هُدِيَتْ به أُمته . والذى هدى الكل فى الحقيقة إنما هو الله . وعاضِدُ هذا التأويل مُصَرح [به] فى الإنجيل وهو : « أنا كرمة الحق وأبى هو الغارس كل غصنٍ فىَّ[2] » . صَرَّح بهذا النص يوحنا فى فصل الفارقليط[3] . وفى اللغة التى ترجمت منها هذه الرسالة : المؤتَمن عَبْد من خَلْقه[4] » .

بقى ههنا بحث وهو أن مثل هذا المجاز السالف وهو إطلاق لفظ الحاول ، وإطلاق « أنا والأب واحد » ، لم يُؤْذن لصاحب شريعتنا ولا لأحد من أُمته باستعماله البتة . لكن عيسى صاحب شريعة ، وكل شريعة اختصت بأحكام . وحيث أطلق هذه
٢١و النصوص ، واعتذر عن توهم إرادة ظواهرها ، بضربه لهم المَثل ، دَل على أنه أُذِن له بإطلاقها واستعمال المجاز المذكور ، وكذلك إطلاق الأبوة والبنوة ، ، وسنذكر المعنى الحامل له على إطلاقهما .

---

(١) الرسالة إلى العبرانيين الإصحاح ٣ عدد ٤ (ع)

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٥ عدد ١ (ع)

(٣) الفار قليط هى صياغة عربية لكلمة Paracletos اليونانية ومعناها يدعو أو يعزى وتطلق على الروح القدس فى اللاهوت المسيحى (ع) .

(٤) عبارة : المؤتمن عبد من خلقه لم ترد فى ب

فليت شِعْرى بأَى عذر يعتذر المعانِد بعد تصريحه بالإنسانية والرسالة وتَقَيُّد أحكامه بما يُؤْمَر به ، وتأْويله نفسه ماتقدم من ظواهر النصوص الدالة على الاتحاد ، معتذرا عن بعضها بضربه المثل المذكور لليهود ، ومُصَرِّحاً فى بعضها بالرسالة ، ووقوفه فى بعضها سائلا داعياً لله عز وجل موقف العبد الخاضع مستمطِرا إحسان الإله لتلامذته بقوله : « احفظهم باسمك الذى أعطيتنى » . وبقوله : « قَدِّسهم بحقك » .

٢١ظ ثم تجده إذا ألجأَته المضايق أبا براقش[1] ، إن وجد مايدل على إنسانيته أعاد ذلك على ناسوته ، وإن وجد ظاهرا عجز عن تأْويله رَد ذلك إلى لاهوته . فانظر كيف أعمى الله بصيرة من يجعلَ إلَهه تارة إنساناً وتارةً إلهاً تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . ثم لابُدَّ من إبطال ذلك غير مُقَصِّرين عن الشناعة والاستبعاد فنقول :

هم يعتقدون أن الإلَه خلق ناسوت عيسى عليه السلام ، ثم ظهر فيه متحدا به ، ويعنون بالاتحاد أنه صار له به تعلُّق ، على حَدّ تعلق النفس بالبدن ، ثم مع هذا التعلق حدثت حقيقة ثالثة مغايرة لكل واحدة من الحقيقتين ، مُرَكَّبة من لاهوت وناسوت ، موصوفة بجميع مايجب لكل واحد منهما من حيث

---

(١) أبو براقش طائر يتغير لونه ألواناً شتى ، يقال للمتلون من الناس أبو براقش . وفى القاموس المحيط البرقشة التفرق وخلط الكلام . وفى مستدرك الزبيدى فى التاج : البرقشة شبه تنقيش بألوان شتى . (ع) .

هو إله وإنسان ، وقد ارتكبوا فى إثبات هذه الحقيقة فضائح كان الأخلق بهم سترها . والأخرق إذا لم يستح قال ماشاء ، لأنهم أثبتوا لها جميع ذاتيات الإنسان ولوازمه وملزوماته ، وصفاته ، وجميع مايجب للإله ومايستحيل عليه من حيث هو إله . وقضوا بأنها مغايرة لكل واحد منهما مع الاشتراك فى جميع ما ذُكِرَ .

٢٢و

هذه مقالة من لاعقل له . وهذه الحقيقة هى المُعَبَّر عنها عندهم بالمسيح . وهذا خبْط عظيم ، وعدول عن الحق الواضح وهل هم فى هذه المقالة إلا كما قيل :

طَلَبَ الأَبْلَقَ العَقُوقَ فلما لم يَنَلهُ أَرَادَ بَيْضَ الأَنُوقِ (١) .

---

(١) كثيراً ما يرد هذا البيت فى كتب الأدب والأمثال فى مجمع الأمثال للميدانى (ج ١ ص ٢٩٢) طلب الأبلق العقوق يضرب لمالا يكون ولا يوجد . وفى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، للثعالبى (القاهرة سنة ١٩٠٨ م ص ٣٩٠ : ٣٩١) : بيض الأنوق : تضرب العرب المثل ببيض الأنوق فى الشئ الذى لايوجد فتقول : أعز من بيض الأنوق وأبعد من بيض الأنوق ، والأنوق : الرخم الذكر وإنما البيضة للأنثى ، هذا قول أبى عمرو ، وأما غيره من اللغويين فانهم أجمعوا على أن الأنوق تلتمس لبيضها الأوكار البعيدة والأماكن الوحشية والجبال الشاهقة وصدوع الصخر الغامضة فلا يصل إليها سبع ولا آدمى كما قال الشاعر :

وكنت إذا استودعت سراً كتمته كبيض أنوق لا ينال له وكر

والأبلق الفرس فيه سواد وبياض وهو ذكر ، والعقوق الحامل أو الحائل ضد وهى أنثى وعبارة : وهل يكون الأبلق العقوق ؟ أى ولا يكون الذكر أنثى (الحيوان للجاحظ تحقيق هارون ج ١ ص ٣١٠) وقيل : طلب رجل من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاد له بها فسأل ولده فأبى فسأل لعشيرته فتمثل معاوية بهذا البيت . وفى موضع آخر من كتاب الحيوان (ج ٣ ص ٢٢ ٥ : ٥٢٣) يقول الجاحظ : وليس يكون العقوق إلا من الإناث فاذا كانت من البلق كانت بلقاء .. وقد يرون بيض الأنوق ولكن ذلك قليلا مايكون وأقل من القليل =

لأنهم حاولوا أن يُثبتوا تعلقاً بين ذات الإله وذات عيسى

= لأن بيضها فى المواضع الممتنعة وليس فيها منافع فيتعرض فى طلبها للمكروه ، ثم انتقد الجاحظ هذا البيت إذ الأولى فى نظره تقديم الممكن الذى لاينال إلا بمشقة وهو بيض الأنوق على المستحيل وهو أن الفرس الأبلق لا يكون أنثى . فقد كتب يقول : وأنا أظن أن معاوية لم يقل كما قالوا ولكنه قدم فى اللفظ بيض الأنوق فلما لم يجده طلب الأبلق العقوق .

وفى الأمالى للقالى (ج ١ ص ١٢٨): الأنوق الذكر من الرخم ولا بيض له . هذا قول بعض اللغويين . . . والرخمة تبيض فى مكان لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناء . فيراد بهذا المثل أنه طلب مالا يقدر عليه فلما لم ينله طلب مايجوز أن يناله .هذا على القول الثانى. فأما على القول الأول (وهو أن الأنوق الذكر لايبيض) فانه طلب مالا يمكن فلما لم يجد طلب أيضاً مالا يكون ولا يوجد .

وفى التنبيه للبكرى (ص ٥٠) : روى المدائنى أن رجلا أتى معاوية وهو يخطب فقال : زوجنى أمك فقال الأمر لها وقد أبت أن تزوج قال : فافرض لى ولقومى فتمثل معاوية بهذا البيت . وعند المبرد فى الكامل (ج ٢ ص ٣١) أن الأنوق هو الرخمة ولا يقال إلا للرخمة الأنثى – مما يؤكد معنى الاستحالة فى كل من الطلبين . وفى حياة الحيوان للدميرى (ج ١ ص ٤٢): الأنوق على وزن فعول الرخمة أو طائر أسود له شئ كالعرف أو أصلع الرأس أصفر المنقار ... وفى المثل أعز من بيض الأنوق وأبعد من بيض الأنوق فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها فى رءوس الجبال والأماكن الصعبة . وقال رجل لمعاوية زوجنى هندا يعنى أمه فقال أنها قعدت عن الولد فلا حاجة لها إلى الزواج قال فولنى ناحية كذا فأنشد معاوية هذا البيت ومعناه أنه طلب مالا يكون فلما لم يجده طلب مايطمع فى الوصول إليه وهو مع ذلك بعيد . كذا قال جماعة : ممن تكلم على الأمثال وهو غلط لأن أم معاوية ماتت فى المحرم سنة ١٤ هـ اليوم الذى مات فيه أبو قحافة والد أبى بكر الصديق والصواب الذى فى نهاية ابن الأثير . . . وعند السهيلى الأنوق الأنثى من الرخم ... وهذا قول المبرد فى الكامل ولم يوافق عليه فقد قال الخليل الأنوق الذكر من الرخم وهذا أشبه بالمعنى لأن الذكر لايبيض فمن أراد بيض الأنوق فقد أراد المحال كمن أراد الأبلق العقوق .

وفى رواية القالى للبيت فلما فاته . وفى رواية أخرى فلما أعجزته . وفى رغبة الآمل للمرصفى (ج ٦ ص ٤٣) : الأنوق طائر يشبه الرخمة فى القد والصلع وصفرة المنقار . غير أن الأب شدياق ترجم بيض الأنوق إلى الفرنسية بأنه des oeufs de coq أى بيض الديك وهذا خطأ . ففى معجم كازمرسكى : عربى فرنسى مادة رخمة (ج ٢ ص ٢٢٩ بولاق سنة ١٨٧٥ م) أنه :

Espèce de vautour qui a le corps et le cou blancs etles extrémités noires.

أى أنه نوع من العقبان (جمع عقاب) أو النسور به بياض فى جسمه ورقبته وأطرافه سوداء وفى معجم الحيوان لأمين المعلوف (ص ٢٥٩ القاهرة سنة ١٩٣٢ م) مادة رخمة وأنوق =

عليه السلام على حَد تعلق النفس بالبدن . فلم يقدروا على تحقيق ذلك ، بل ادعوا إثباته بمجرد الإمكان من غير إتيان بحجة محركة للظن. فكيف يَدَّعون إثبات ما هو مستحيل الإمكان متعذر[1] الوجود ؟

وبيان تعذر ذلك أن وجود كل حقيقة مركبة موقوف
٢٢ظ على وجود أجزائها وتركيبها تركيباً خاصاً .فحينئذ تكون مفتقرة فى وجودها إلى وجود أجزائها ، ويكون كل جزء من أجزائها مفتقراً فى جزئيته أى فيما يصير به جزءاً محصلاً له صفة الجزئية وتركيبه الخاص إلى انضمام غيره . والتقدير أن أحد جزئَىْ هذه الحقيقة اللاهوت وجُزْءَها الآخر الإنسان ، وهو المحصل للاهوت صفة الجزئية وتركيبه الخاص بانضمامه إليه جُزءاً ، إذ بذلك حصل مجموع ما ذُكِر .

فيكون اللاهوت مفتقراً إلى الانسان ، وذلك مُحَال بَيِّن بُطْلانه . هذا إذا لم يُرَد بالتركيب تركيب امتزاج واتحاد أو مجاورة ، فإن أُرِيد به شىء من ذلك كان الخَطْب أعظم فى الفساد . وربما نُقل عن بعض المُغَفَّلين منهم أن هذا

= بأنه طائر أبقع أصلع الرأس أصفر المنقار وأنه نوع من النسور ، وهو بالإنجليزية : Pharcah's hen or Egyptian vulture. واسمه العلمى : Necphron percnoptetus وأضاف المعلوف بأن هذا الطائر يسمى راحام بالعبرانية ويظن أن الاسم العربى والعبرانى من مادة رخم أو رحم وسميت الرخمة بذلك للينها أوعطفها على أولادها ومن هذه اشتقت ألفاظ كثيرة ترجع كلها إلى العطف أو اللين أو الحنو الوالدى كالرحمة والرحم والرخامة والترخيم ورخت الدجاجة أى حضنت بيضها وألفاظ كثيرة غيرها كما يتضح من مراجعة باب رحم ورخم فى كتب اللغة . ثم ذكر المعلوف ماجاء فى كتاب الدميرى فى مادة أنوق . (ع) .

(١) فى الأصل : « معتذر الوجود » وهو تحريف من الناسخ (ع)

التركيب لا تُعْلم حقيقته . وجوابهم أن مخالفة صرائح العقول والركون إلى أمر غير معقول حماقة وسخافة فى العقل .

ثم نقول أيضاً : من الرَّاسى [1] أن الإلٰه إذا كان خالقاً للناسوت ثم ظهر فيه متحداً به ، فقد حدثت له صفة بعد خلقه وهو اتحاده به ، وظهوره فيه ، فنقول : إذاً هذه
٢٣ و الصفة إن كانت واجبة الوجود استحال اتصافها بالحدوث وإن كانت ممكنة الوجود استحال اتصاف البارى بها لأن صفات البارى كلها واجبة الوجود لأن كل ما لزم من عدم وجوده مُحَال ، فهو واجب الوجود ، وصفات الإلٰه يلزم من عدم وجودها مُحَال بَيِّن . .

فإن قيل : إن كان هذا لازماً استحال خلق العالم ، بل استحال خَلْق مخلوق واحد ، لأن الله عز وجل إذا خلق مخلوقاً واحداً حدثت له صفة وهو اتصافه بخلقه ، فيلزم المُحَال المذكور .

فالجواب ، إن هذا غير لازم البتة ، لأن المعنى من كون الله خالقاً تقديره الخلق فى الأزل . وهذه الصفة ثابتة له أزلاً . فإذا خلق مخلوقاً فعلمه بوجوده فى زمن خلقه والقدرة على إيجاده فى ذلك الزمن أيضاً كلاهما ثابتٌ أزلاً . فلم يبقَ حادث سوى وجوده . ووجوده ليس صفة قائمة بذات الإله

---

(١) الراسى إسم فاعل من رسا أى الثابت الراسخ وترجمها الأب شدياق : من الواضح : il est clair (ع)

جَل اسمه بل بذات المخلوق . وأما نسبة الوجود إلى تأثير القدرة فيه زمن إيجاده فذلك من باب النسب والإضافات والنسب والإضافات ليست أمراً وجودياً كالفوقية والتحتية والأبوة والبنوة . وهذا معنى بَيِّن الظهور بخلاف ما تقدم ، فإنه إذا اتحد بالناسوت كان اتحاده به صفةً قائمة بذاته ، تعالى الله عن ذلك .

ثم لو فُرض وجود هذه الحقيقة ، فالقول بأنها حقيقة ثالثة مغايرة لكل واحد من اللاهوت والناسوت ، موصوفة بكل ما يجب لكل واحد منهما من لوازم الإنسان وملزوماته وصفاته من حيث هو إنسان ، وما يجب للإله ويستحيل عليه من الصفات الثابتة له من حيث هو إله ، كلام متهافت لامطمع لأحد فى تحقيقه .

وبيانه أن الشيء إنما يوصف بصفة إذا كان وصفه بها ممكناً . وإذا ثبت ذلك امتنع أن يجرى على هذه الحقيقة
٢٤ و أحكام اللاهوت وأحكام الناسوت ، لأن جميع ما يجب للاهوت من الصفات وغيرها المختصة به من حيث هو لاهوت المميزة له عن غيره إن كانت ثابتة للحقيقة الثالثة لزم أن تكون عين اللاهوت ، وكذلك القول فى الناسوت لاشتراكها معهما فى جميع لوازم كل واحد منهما وجميع ملزوماته وصفاته الثابتة له من حيث هو إله ومن حيث هو إنسان على حَد ما ذُكر .

إذ لو ثبتت المغايرة والحالة هذه لَلَزم أن تُثْبتَ لشيء جميع ذاتيات الإنسان المُقَوِّمة لحقيقته وجميع عوارضه اللازمة والمُفَارقة ، ويُفْرَض مع ذلك حقيقة مُغَايرة لحقيقة الإنسان . هذا من المُحَال البَيِّن ، لأن جميع ذاتيات الإنسان المُقَوِّمة له ، وجميع عوارضه الثابتة له من حيث هو إنسان متى وجدت فى شيء أوجبت[١] لذلك الشيء حقيقة الإنسانية ،
٢٤ظ ونفت عنه صدق[٢] ما يغايرها ، وإلا لم تكن ثابتة له من من حيث هو إنسان ، وقد فرضناها كذلك . وهذا خُلْف[٣] .

ثم لو كانت[٤] إلهاً كاملاً لثبتت لها أوصاف الإله الكامل ، ومن أوصاف الإله الكامل ألا يكون مُرَكَّباً منه ومن الإنسان ، لأنه يلزم أن تكون ذات الإله محتاجة إلى الإنسان فى الوجود ومسبوقة به وبنفسها أيضاً. إن طائفة لم تتفطن لمثل هذا الخطإ الواضح فصوابهم عَنْقَاءُ مُغْرِب[٥] .

فإن قيل : إنما يلزم ذلك إذا جعلناها موصوفة بجميع ما يجب للإلٰه من الصفات وغيرها . وكذلك القول فى الناسوت

---

(١) فى ج : وجب (٢) فى ج : ضد (٣) الخلف بضم الخاء المعجمة وتسكين اللام المحال الذى ينافى المنطق ويخالف المعقول عن المعجم الوسيط (ع) . (٤) العبارة ابتداء من « ثم لو كانت . . إلى « وبنفسها أيضاً » وردت فى ج هكذا : « ثم لو كانت إنساناً كاملا لثبت لها أوصاف الإنسان ومن أوصاف الإنسان ألا يكون جزء حقيقة وأحد جزأيها الآخر الإله جل اسمه ، وكذلك القول فى اللاهوت (٥) فى القاموس المحيط : عنقاء مغرب ومغربة طائر معروف الإسم لا الجسم . أو من الألفاظ الدالة على غير معنى وترجمها الأب شدياق بكلمة تناقض contradiction (ع) .

من حيث هو حقيقة. أما إذا أجرينا على كل من اللاهوت والناسوت جميع أحكامه وصفاته التى كانت ثابتة له قبل التركيب فلِمَ قلتم إن ذلك ممتنع ؟

فالجواب : إن اعتبار أحكام جميع ما يجب لكل واحد منهما من حيث هو إله وإنسان إن اعتبرت لا بقيد التركيب
٢٥و استحال أن يكون للحقيقة الثالثة اعتبار[1] إذ يكون ذلك حكماً على المفرد بقيد كونه مفردا . وإن اعتبرت بقيد التركيب استحال بقاءُ جميعها بعد التركيب ، إذ لو بقى جميع ما يجب لكل واحد من المُفْرَدَيْن من حيث هو كذلك بعد التركيب ثابتاً لهما لَلَزِم أن يكون ثابتاً للحقيقة الثالثة[2] . وحينئذ يلزم المحال المذكور وهو أن تكون الحقيقة الثالثة نفس اللاهوت ونفس الناسوت لاشتراكهما معهما فى جميع ما يجب لكل واحد منهما[3] من الصفات وغيرها من حيث هو إله ومن حيث هو إنسان .

فثبت حينئذ بما ذكرناه أن وصفها بكل ما يجب لكل واحد من اللاهوت والناسوت ممتنع سواء اعتبرنا كل واحد
٢٥ ظ منهما بقيد التركيب أو منفكاً عنه .

هذه مُبَاحثة من دقيق النظر فَلْتُفْهَم ، وجاهلهم [الجَهْل] المُرَكَّب يعتقد أن الخلاص من هذه الفادحة هَيِّن ، فيظُنّ أنه ينجو

---

(١) فى س : اعتباران وفى ج : اعتبارات . (٢) فى ب وس و ج : المفردة .
(٣) العبارة ابتداء من كلمة : منهما إلى كل واحد — بعد سطرين — لم ترد فى ج .

من هذه المضايق بأمثلة لاتفيده عين المسألة فيقول : قدثبت وصف الإنسان بالجسمية والإحساس والنمو والتغير والفَنَاء ، وأنه ذو حَيِّز . وثبت أيضاً انصافه بالنطق وإدراك الكليات والجزئيات والفهم وغير ذلك مما يجب رَدُّه إلى النفس . وهذه الأحكام إنما يتم اعتمادها إذا نظر إلى الجسم الحيوانى من حيث هو كذلك . وإلى النفس أيضاً من هى كذلك .

وهذا المذهبان متقاعد عما نحن بصدده تقاعدا بَيِّناً ، لأنهم يعتقدون فى الحقيقة الثالثة أنها إنسان كامل وإله كامل ، وأن جميع ما هو ثابت للإنسان ثابت لها ، وكذلك القول فى الإلَه : فلا بُدَّ من مثال يُفيد عين هذا الاعتقاد .

٢٦ و وإنما يتم ذلك إذا ثبت أن الإنسان يَصْدُق عليه أنه مُجَرَّد ، ليس بجسم ولا حَال فى جسم ولا متحيز ، وأنه باق غير فانٍ ، لأنهم فلاسفة فى هذه المسألة ، فيُثْبِتون له ما هو ثابت للنفس من حيث هى نفس[1] . ثم يصفونه أيضاً بنقيض ذلك ، مما هو ثابت للجسم الحيوانى من حيث هو جسم ، فيقال إنه جسم طبيعى يوجد مثله فى أشخاص مختلفة بالحَد والحقيقة ، وأنه حصة من الجنس ، وأنه متحيز متحرك قابل الفساد[2] .

وظَنِّى أن من تَوَاقَحَ[3] وأثبت للحقيقة الثالثة ما أثبته من المُحَال غيرُ بعيد منه أن يجحد الضرورة ، ويلتزم عَيْنَ ما نُكِر[4] . وإلا فأى فرق ؟ والعجب من الغفلة عن مثل هذه

---

(١) نفس ، لم ، ترد فى ج (٢) وأنه متحيز متحرك قابل الفساد ، سقط فى ب و س

(٣) فى ب : تواقع (٤) فى ب و س : عين ماذكر ، فى ج : عين ماذكره

الأمور الواضحة . وإن اعْتُقِدت مع العلم بفسادها فأعظم في الجهالة .

فإن قيل : إنما يلزم ذلك كله إذا كان التركيب الذى نقول به تركيب امتزاج واختلاط ، ونحن لا نقول بذلك ،
٢٦ ظ وإنما نَعْنى بتركيب هذه الحقيقة تركيباً معنوياً يرجع حاصله إلى تعلق معنوى بين اللاهوت والناسوت .

فالجواب : إن هذا التعلق قد سلف منا بيانُ عدم جدواه فيما يحاولونه سواء كانت النسبة عامة أو مُقيَّدة .

وهذا القول السالف فى الحقيقة الثالثة منسوب إلى رأى اليعقوبى . وأما الملكى[1] فله مقاله شَر من ذلك . وستحكم عند سماعك إياها بأن آراء هذه الطوائف ضُحْكَة العقلاء ، وأن الله عز وجل اسْمُه أَضَلَّ بها قوماً أراد إضلالهم . فكذلك طبع على قلوبهم وبصائرهم .

فنقول : هم يعتقدون بأن حقيقة إنسانية عيسى عليه السلام ، وذات الإله حقيقتان متميزتان ليس بينهما اختلاط ولا امتزاج[2] . بل كل حقيقة باقية على جميع أوصافها الثابتة لها من حيث هى كذلك . وإن المسيح أُقنوم
٢٧ و لحقيقة الإلَه فقط ، وهى حقيقة غير مركبة أُخِذَت[3] من الحقيقتين المذكورتين ولها اتحاد بالإنسان الكلى .

---

(١) يقول اليعاقبة بالطبيعة الإلهية الواحدة للسيد المسيح كما يقولون بالمشيئة الواحدة ، أما الملكية فيقولون بالطبيعتين والمشيئتين لكل من اللاهوت والناسوت . (ع) .

(٢) ولا ماتزاج لم ترد فى ب (٣) أشار الأب شدياق فى مقدماته إلى أن هذا الفعل يجب أن يكون منفياً أى ماأخذت بدلا من أخذت وذلك طبقاً لعقيدة الملكية التى يحكيها الغزالى ولعل ذلك فى نظره يرجع إلى سهو الناسخ (ع) .

فانظر إلى عَوَار هذا الكلام وعدم انتظامه ، وكيف أخطره الله ببال من أراد أن يُغوِيَهم ويصدهم عن سبيل الحق الواضح. كيف جعلوا حقيقة الإله مأخوذة من حقيقة الإنسان وحقيقة نفسه ، ثم أثبتوا لها اتحاداً بالإنسان الكلى . والإنسان الكلى لاوجود له فى الخارج ، فتكون حينئذ متحدةً بما لاوجود له إلا فى الذهن . ويلزم على هذا الرأى السخيف أن يكون المصلوب هو الإله ، تعالى الله عن ذلك .

ولننظم من هذا الرأى المقول قياساً منطقياً فنقول :

المسيح صُلِب – ولا شىء مما صُلِب بإله – فلا شىء من المسيح بإله .

وهؤلاء لا يقدرون على منع الكبرى[1] ، لأن حقيقة المسيح لايقولون بتركيبها ، والمُتَّحَدَ به لا وجود له فى الخارج .

٢٧ ظ فيرجع إذاً حاصل هذا الرأى إلى أن للمسيح المصلوب نسبةً إلى الإنسان الكلى الموجود فى الذهن ، وهذا لا يدفع ما ألزموا لأن النِسَب قد سلف منا بيانُ عدم كونها من الأمور الوجودية . ثم لو حكمنا عليها بالوجود لم يحصل لهم بذلك نجاة ، لأن النِسَب والإنسان الكلى كل منهما لا يوصف بصَلْب ولا ألم .

فإن قيل : إن النوع الكلى الطبيعى موجود فى الخارج .

---

(١) أى المقدمة الكبرى (ع) .

قلنا : إن أُريد ذلك لَزِم أن يكون للإلّه اتحاد بكل فرد من أفراد الإنسان[1]

فإن قيل : المراد خصوصية حصة عيسى عليه السلام مع قطع النظر عن مُشَخّصاته المميزة له عن غيره .

قلنا : هذا اعتبار ذهنى لا وجود له فى الخارج ، بل وجود هذه الحصة ملزوم لوجود مُشَخّصاته ، فيرجع حاصل هذا إلى الاتحاد بإنسان جزئى ، وسنُبْطل هذا الرأى عن قريب .

٢٨ و ثم لو تصور أن تكون حقيقة الإلّه مأْخوذة من حقيقة الإنسان وحقيقة نفسه لَلَزِم أن يكون ما حصل به الوجود لحقيقة الإلّه على الصفات الثابتة لها إذ ذاك من الحقيقتين سابقاً على وجود حقيقة الإلّه موصوفة بما ذكر . وحينئذ يكون وجود حقيقة الإلّه الموصوفة بذلك مسبوقاً بوجود حقيقة الإنسان ، ومسبوقاً أيضاً بوجود حقيقة نفسه . وصفات الإله يجب أن تكون واجبة الوجود ، ثابتة أزَلاً لذاته ، وإحدى الحقيقتين التى هى شرط لوجود حقيقة الإلّه موصوفة بما ذكر هى حقيقة الإنسان ، وحدوثها مقطوع به ، فكيف تكون شرطاً لما هو ثابتٌ أزَلاً ؟

---

(١) فى س : أفراد الإسلام .

هذا كله إذا عُنِى بالأَخذ أَن ذات الإِلَه أُحْدِثَت[1] لها صفة عند خلق الناسوت . فإن أُرِيد بذلك أَن الحقيقتين شرط فى أَصل وجود ذات الإِله جَلَّ اسمه ، فهذا كلام من لا عقل له .

٢٨ ظ هذا رأَى القدماء منهم . وأَما المتأَخرون فبمثل مقالة هؤلاء يقولون من غير فرقان[2] إلا فى الاتحاد ، فإنهم يقولون إن للمسيح اتحادا بإنسان جزئى ، والمسيح عند الفريقين أقنوم لحقيقة الإِله فقط . وهى عند الفريقين أَيضاً حقيقة غير مركبة أُخذت من الحقيقتين ، يعنون بالحقيقتين حقيقة الإِله جَلَّ اسمه ، وإنسانية عيسى عليه السلام . ثم وقع الاتفاق منهما على أَن كل حقيقة باقية على جميع أَوصافها من غير اختلاط ولا امتزاج ، بل كل منهما حافظة ذاتها من حيث هى كذلك . والمسيح الذى هو أُقنوم لحقيقة الإِله فقط فقد صَرَّحوا بصلبه ، فيلزم أَيضاً للفريق الثانى ما لَزِم الأَول .

أَما الأَول فقد مضى القول فيه مُبَيَّناً . وأَما الثانى فلأَنهم مُصَرِّحون بأَن المسيح عليه السلام أُقْنُوم لحقيقة الإِله فقط ، ومعتقدون بأَن حقيقته غير مُرَكَّبة ليس بينها وبين حقيقة الإِنسان اختلاط ولا امتزاج ، وقد حكموا مع ذلك بصلبه ،
٢٩ و فيلزم أَن يكون المصلوب هو الإِله .

---

(١) فى س : حدثت (٢) فى النهاية يقال فرقت بين الشيئين أفرق فرقاً وفرقاناً . وفى الصحاح : كل مافرق بين الحق والباطل فهو فرقان . وهى هنا بمعنى تفرقة أو حجة وبرهان (ع) .

فإن قيل : إن الفريقين كل منهما قائل بالاتحاد فلِمَ لا يعود الصلب إلى المُتَّحد به ؟

فنقول : هذه الدعوى لا يقدرون على تحقيقها البتة . أما القدماءُ فلأن المُتَّحدَ به لا وجود له إلا[1] فى الذهن ، ولأن حقيقة المسيح عندهم غير[2] مُرَكَّبة . وأما المتأخرون فبمثل هذه المقالة أيضاً يقولون. وأما الاتحاد عندهم بإنسان جزئى فحالُه يرجع إلى نسبة . والعجب من إطلاقهم الصلب على المسيح الذى هو أُقنوم لحقيقة الإله فقط.

ثم يعترفون بأن الاتحاد غير معقول الحقيقة . وكيف يستجيز العاقل أن يُطْلَق الصلب على المسيح الذى هو أُقنوم لحقيقة الإله فقط ، ويُصَرِّح بجهله بحقيقة الاتحاد الذى يبتنى على العلم به رَدّ الألم إلى الإنسان وصَرْفه عن الإله جَلَّ اسمه ؟ . ٢٩ظ

وأعجب من ذلك ركونه إلى ما لاتُعْلَم حقيقته ، وله عن هذه الجهالة مندوحة ظاهرة . وأى عُذْر لمن يعتقد أن الحامل له على ذلك[3] ما ورد من ظواهر النصوص الدالة على الاتحاد وما ظهر على يد المسيح عليه السلام من الخوارق ؟ وهذا اعتراف بالجهل الصَّاد عن الحق . ومن لم يَدْر أوضاع العلوم ولم يكن له منها هادٍ يزعه عن الجهالة هان عليه أن يقول مثل ذلك .

---

(١) إلا : سقطت فى س (٢) غير : سقطت فى ب (٣) ذلك : لم ترد فى ب .

أما الاتحاد فقد ذكرنا إطلاقه على غير عيسى عليه السلام وبيناه أحسن بيان ، وأما ظهور الخوارق على يده بالسؤال والطلب فذلك ثابت لغيره من الأنبياء . وكيف يُنْكَر ذلك وهو المتضرِّع السائل عند إقامته عازر ؟ وقد رفع عينيه إلى السماء وقال : « يا أَبَتِ أشكرك لأنك تسمع لى ، وأنا أعلم أنك سميع لى فى كل حين ولكن لأجل هذا الجمع الحاضر [قلت] : ليؤمنوا أنك أرسلتنى . »[1] والطالب لتلامذته التقديس والحفظ من الإله القادر على ذلك بقوله : « قَدِّسهم بحقك ، » وبقوله : « احفظهم باسمك الذى أعطيتنى »[2] . ٣٠ و

والداعى متضرِّعاً والمتردد فى إمكان النجاة من الصلب بقوله : « إن كان يُسْتَطاع فلتعبر عنى هذه الكأْس وليس كإرادتى لكن كإرادتك . »[3] والمستفهم من إلهه لِمَ تركه بقوله : « إلهى إلهى لِمَ تركتنى ؟ »[4] والنافى عنه العلم المختص بالإله إثباته بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أَحَدٌ ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب وحده . »[5] والمُصَرِّح بالإنسانية والرسالة بقوله : « [وأنا]

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ١١ عدد ٤١ : ٤٢ وقد أضفنا كلمة « قلت » من نص الترجمة العربية (ع) (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٧ عدد ١١ والنص : أيها الأب القدوس احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى ليكونوا واحداً كما نحن . ويلاحظ هنا أن كلمة الذين تعود إلى تلامذته (ع) (٣) إنجيل متى الإصحاح ٢٦ عدد ٣٩ والنص فى الترجمة العربية : وكان يصلى قائلا : ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (ع) .

(٤) إنجيل مرقس إصحاح ١٥ عدد ٣٤ (ع)

(٥) إنجيل مرقس إصحاح ١٣ عدد ٣٢ (ع)

إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله[1] » والمُقَيِّد أحكامه بما يُؤْمَر به : « كما أمرنى الأب كذلك أتكلم[2] » والمشهود له على لسان من أثنى عليه من عظماء تلامذته بأن الخوارق مصنوعة لله على يده بقوله : « إن يسوع الناصرى رجل ظهر
٣٥ ظ بينكم بالقوى والآيات التى فعلها الله على يده[3] »

وإذا كانت هذه حالته عليه السلام فكيف يَرْكَن العاقل إلى مالا يعلم حقيقته مع إمكان علمه ، ويَنْبِذ المعقول والمنقول حَجْرَةً[4] ؟

وأما النسطورى فيقول : إن الاتحاد وقع فى المشيئة . وهذا كلام مُتَبَّج[5] يجب تحريره فإن عَنَوْا بذلك أن مشيئة عيسى عليه السلام تابعة لمشيئة الإله فى الأحكام الخمسة لاتباينها فى واجب ولا محظور ولا مندوب ولا مكروه ولامباح فهذا ثابت لجميع الأنبياء ، بل وللأولياء أيضاً الذين ليسوا فى درجة الأنبياء .

---

(١) إنجيل يوحنا إصحاح ٨ عدد ٤٠ وقد أضفنا كلمة أنا من نص الترجمة العربية (ع) .
(٢) إنجيل يوحنا إصحاح ١٢ عدد ٤٩ ولفظه : لأنى لم أتكلم من نفسى لكن الأب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم (ع) (٣) أعمال الرسل إصحاح ٢ عدد ٢٢ (ع)
(٤) فى النهاية لابن الأثير : إذا رأيت رجلا يسير من القوم حجرة أى ناحية منفرداً وهى بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم وجمعها حجرات . (ع) . (٥) الشبج بفتح الشاء المثلثة وفتح الباء المعجمة تعمية الخط وترك بيانه كالتشبيج ، يقال تبج الكتاب والكلام تشبيجاً لم يبينه ، وقيل لم يأت به على وجهه والتشبيج التخليط وكتاب مشبج وقد ثبج تثبيجاً — عن تاج العروس (ع)

وإن أرادوا بذلك أن جميع ماتعلقت به مشيئة الإله من الكائنات هو بعينه متعلق مشيئة[1] المسيح عليه السلام فهذا عين الخطأ . ولايَجْمُل بعاقل أن يُخْطِره بباله فضلاً عن أن يعتقده مذهباً .

وكيف يمكن ادعاءُ ذلك ؟ وقد تعلقت مشيئة الإله بصلب
٣١و المسيح عليه السلام ، ولم يكن الصَّلْب مراداً له ولا تعلقت مشيئته به . يدل على ذلك تَضَرُّعه للإله سائلاً دَفْعَه بقوله : « إن كان يستطاع فلتَعْبُر عنِّى هذه الكأس وليس كإرادتى ولكن كإرادتك . » فصَرَّح بتغاير الإرادتين وتبَرمه أيضاً مصلوباً[2] ، سائلاً عن السبب بقوله : « إلهى إلهى لِمَ تركتنى » يدل على عدم شعوره بالسبب . ومن لم يكن شاعراً بحقيقة الواقع كيف تتعلق مشيئته بوقوعه ؟

ومن المعلوم أن مشيئة المسيح عليه السلام كانت متعلقة بمتابعة جميع بنى إسرائيل له ، وجمعهم على الهُدَى . هذا شأن الأنبياء الهادين . وما تعلقت مشيئة الإله بذلك بل تعلقت بعدمه ، لأن الواقع عدمه وكذلك الساعة تعلقت مشيئة الإله بوقوعها فى زمن مخصوص ، والمسيح غير عالم بتعيين ذلك
٣١ظ الزمن . فكيف تتعلق مشيئته بتعيينه ؟ ثم قصد شجرة التين تعلقت مشيئة الإله بأن يقصدها وهى غير مثمرة والمسيح عليه السلام قصدها غير عالم بحقيقة هذا التعلق . وهذا كثير

---

(١) الأصوات متعلق بمشيئة . . (ع) (٢) مصلوبا : سقطت فى ب .

وجودُه فليُطْلب من مواضعه[١] . وإنما عدلنا عن الإطالة لأنه سهل التعرُّف .

وهذه الطائفة قدعُلِم من حالها أنهم يطلقون لفظ الإله على المسيح عليه السلام . وليت شعرى هل المراد بهذا الإطلاق تعظيمه ؟ لأن الإله يطلق على كل عظيم أم يريدون بذلك إلهيته فإن كان هذا الثانى هو المراد فجهل هذه الطائفة أعظم من جهل جميع الطوائف .

والذى أوقعهم فى هذه المضايق تعلقهم بظواهر أوجبت صرائح العقول القطع بعدم إرادتها ، وإلا فكم ورد فى كل شريعة من ظاهر مُصَادِم لصريح العقل ، وأوّله علماءُ تلك الشريعة . وقد وقع فى مثل ذلك جماعة من الأكابر ، فبعضهم قال : سبحانى ، وقال الآخر : ما أعظم شانى[٢] . وقال الحلاج : أنا الله ، وما
[٣٢و فى الجُبَّة إلا الله[٣] . وحُمِل ذلك منهم على أحوال الأولياء الشاغلة عن التحفظ فى المقال ، حتى قال بعضهم[٤] : هؤلاء سكارى ومجالس السكر تُطْوَى ولاتُحْكَى . كل ذلك لقضاء صريح العقل باستحالة كون هذه الظواهر مُرادة .

---

(١) فى الأصل : مواضيعه والمقصود جمع موضع أى مواضع (ع) (٢) عبارة : وقال الآخر هى زيادة من الناسخ إذ قائل هذا واحد هو أبو يزيد البسطامى ، وفى فضائح الباطنية يقول الغزالى فى ص ١٠٩ : « وإليه — أى إلى مذهب الحلولية أشار أبو يزيد البسطامى بقوله : سبحانى سبحانى ماأعظم شانى (ع) . (٣) ورد هذا مع اختلاف فى العبارة فى كتابات الغزالى مثل مشكاة الأنوار ص ١٢٢ : ١٢٣ وفى فضائح الباطنية . وقد فات الأب شديات أن يستعين بهذا الدليل فى إثبات أن رسالة الرد الجميل هى من تأليف الغزالى (ع)

(٤) فى ج : بعض العارفين

ثم تجدهم كأنهم تواصَوْا على السلوك فى أضيق الطرق حتى صاروا هُزْأَةً للساخرين ؛ ولم ينبض لأحد منهم عِرَق العصبيه[١] . ولهم مخرج ومندوحة عما وَرَّطوا أنفسهم فيه . وكيف يصادم المعقول من كان متمكناً من حمل الكلام على محامله السديدة .

وأما إطلاق الحلول فقد سلف منا بيانُه . وأما الرَّب فيُطْلق بالاشتراك على الله جَلَّ اسمه ، وعلى المالك فيقال : رَب المنزل ورب المتاع . وأما الإله فيُطْلقَ عندهم بالاشتراك على كل عظيم ، وقد قال فى الإنجيل : « قد أُطْلِق عليكم فى ناموسكم أنكم
٣٢ ظ آلهة ، » يخاطب اليهود . وفى المزامير : « وآلهة قلتَ لكم وبنو العَلِيّ كلكم[٢] » . وقال فى التوراة لموسى : « قد جعلتك إلهاً لفرعون وأخاك هرون رسولك[٣] . » ويطلق الإله على كل من عُبِد سواءٌ كانت العبادة حقا أو باطلة . وإذا وجد السالك فى المضيق عنه مندوحة فتماديه على غَيِّه عماية .

وبمجموع هذا البيان[٤] صَرَّح بولص فى رسالته الثانية فى الفصل التاسع من رسائله تصريحاً لم يَبْقَ معه عُلْقَة[٥] ، إلا لمن فقد هادييه : عقله وعلمه ، فقال : « وإنه لا إله غير الله وحده ، وإن كانت أشياءُ مما فى السماء والأرض تسمى آلهة ، وكما قد توجد آلهة كثيرة وأرباب كثيرة فإن لنا نحن إلهاً

---

(١) عبارة : ولم ينبض لأحد منهم عرق العصبية ، لم ترد فى ج (٢) سفر المزامير المزمور ٢ عدد ٦ (ع) (٣) سفر الخروج الإصحاح ٧ عدد ١ (ع) (٤) ابتداء من عبارة : وبمجموع هذا البيان إلى عبارة النوكى عثاراً فى الصحيفة التالية ، لم يرد فى ج (٥) العلقة بضم العين المهملة وسكون اللام وفتح القاف هى الشئ أو البلغة وهى هنا بمعنى مايتمسك به (ع)

واحداً هو الله الأب الذى منه كل شىء ونحن به ، ورَبّاً واحداً هو يسوع المسيح الذى كل شئ بيده ، ونحن أيضاً فى ، قبضته[1] » .

فانظر إلى حسن هذا البيان : صرَّح بأن الإله والرب يطلقان
٣٣و على الله عز وجل ، وعلى غيره ممن لا يستحق أن يكون معبوداً ، ثم أثبت للإله المعبود صفة الخالق المستحق للعبادة ، فجعل إيجاد كل شىء صادراً منه بقوله : « الذى منه كل شىء ونحن به . » ثم صَرَّح بأن ذلك هو الله وأثنى عليه بالوحدانية بقوله : « فإن لنا نحن إلهاً واحداً هو الله . » ثم نَفَى استحقاق إلهية غيره بقوله : « وإنه لا إله غير الله وحده . » ثم أشار إلى المسيح إذ[2] أطلق عليه « الرَّب » الذى صَرَّح باشتراكه كان ذلك بمعنى المالك ، يدل على ذلك أنه لم يثبت له شيئاً من صفات الإله المذكورة وإنما أثبت له يَدَ المِلْك التى من شأنها أن تثبت للمالك .

فانظر إلى حُسْن هذه الإشارات التى لا يتقاعد ذو الفهم عن
٣١ظ تلقيها بالقبول ، فليت شعرى من أية الجهات بنى هذا الشرع على هذا الخِزْى الفاضح ، وقد أجَرَّهم الجهل رَسَنَ الجرأة[3] — على الله وعلى أنبيائه الهادين وأوليائه المقرَّبين إلى أن أخطروا ببالهم أباطيل تناقلوها صاغراً عن صاغر ، فلذلك أجمعوا

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ٨ عدد ٤ : ٦ (ع) .

(٢) فى الأصل : إذا (ع)

(٣) من المجاز : أجره رسنه إذا تركه يصنع ما شاء عن تاج العروس . وفى أساس البلاغة أجرت فلانا رسنه أى تركته وشأنه وأجرته الدين أخرته (ع) .

أمرهم على أن بنى آدم أُخِذوا بسبب عصيان أبيهم آدم ، وأن جميع الأنبياء والأولياء أُلْقُوا فى الجحيم ، ثم أن الإله وعدهم أن يَفْدِيَهم ففداهم فِداءِ الكريم. والكريم إذا بالغ فى الفِداء فدى بنفسه ، وذاته مجرَّدة لاينالها ضَيْم ولا أذى ،فاتحد بناسوت عيسى عليه السلام ، ثم أن الناسوت الذى اتحد به صُلِب ، فكان صلبه سبباً لخلاص الأنبياء والأولياء وإخراجهم من الجحيم . لا أقال الله لهذه العصابة النوكى عثاراً .

أما ما تعلقوا به من إطلاق الأبوة على الله عز وجل والبنوة على نفسه[1] ظانِّينَ بأن ذلك مُحَصِّلٌ غرضاً أو مُثْبِت خصوصية يقع بها الامتياز ، فليس الأمر كذلك ، وبيانه أنه قد جاء
٣٤و فى التوراة التى يقولون بصدق ما فيها من التصوص[2] فى حق يعقوب[3] عليه الصلاة والسلام : «ابنى بكْرى إسرائيل .» وقال أيضاً فى التوراة : «قل لفرعون إن لم ترسل ابنى بكرى ليعبدنى فى البَرِّية وإلا قتلت ابنك بكرك[4] .» يريد يا بنى بنى إسرائيل ، وكان عدَّتهم إذ ذاك ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

---

(١) على نفسه أى عيسى عليه السلام (ع) (٢) هذه العبارة وهى : التى يقولون بصدق ما فيها من النصوص ، تنفى ما يقوله الأب شدياق فى مقدماته من أن الغزالى يسلم بصحة نصوص التوراه والإنجيل ، ورتب على هذه الدعوى إغفال المترجمين للغزالى ذكر رسالة الرد الجميل من بين مؤلفاته . فهذا النص يقطع بنفى هذه المزاعم (ع)

(٣) فى حق يعقوب لم ترد فى ب و س

(٤) سفر الخروج الإصحاح ٤ عدد ٢٢ : ٢٣ ولفظه : فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابنى البكر فقلت لك أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر . (ع) .

هذا لفظ التوراة . وفى مزامير داود ، وهو عندهم لاينطق فى مزاميره إلا عن الوحى : « وَبَنُو العَلِى كلكم[١] . » وأطلق عيسى ذلك عليه وعليهم ، فقال : « أنا صاعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم[٢] . » إن من يعتقد فى من هذه كلماته[٣] أنه إله لمدفوع عن الصواب الواضح . وأطلق أيضاً ذلك عليهم فقط فقال فى إنجيل لوقا : « ولاتقطعوا رجاء أحَد فيكون أجركم كثيراً وتكونوا بنى العَلِى لأنه رحيم على غير المُنْعِمين الأشرار
٣٤ظ وكونوا رحماء مثل أبيكم[٤] . »

وأطلق ذلك أيضاً تلميذه يوحنا بن زَبَدا لَمَّا فهم المجاز الذى سنذكره فقال فى رسالته : « من يعترف بأن يسوع هو المسيح فهو من الله مولود[٥] . » — وإن ماحمله على أن تَجَوَّز بمثل ذلك مع القطع بأن الحقيقة غير مرادة لأن الأب جُبِل على أن يكون شديد الحنان والرأفة والرحمة والشفقة لولده ، حريصاً على أن يجلب إليه جميع الخيور ، ويدفع عنه جميع الشرور ، مجتهداً على أن يوضح له طرق الخير ، ويأمره

---

(١) سفر المزامير المزمور ٨٢ عدد ٦ (ع)

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠ عدد ١٧ (ع)

(٣) فى ج : فى من أطلق عليه هذه الكلمات

(٤) إنجيل لوقا الإصحاح ٦ عدد ٣٥ : ٣٦ ولفظه بل أحبوا أعداءكم وأحنوا وأقرضوا وأنتم لاترجون شيئاً فيكون أجركم عظيما وتكونوا بنى العلى فانه منعم على غير الشاكرين والأشرار فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم . (ع)

(٥) رسالة يوحنا الأولى الإصحاح ٥ عدد ١ (ع)

بالمبادرة إليها مسارعاً إلى تحذيره مما يُفْضى به إلى عقوبة أو لَوْم أو ضرر دائم أو جهالة ساترة لما يُراد[١] به فى المستقبل . هذا وضع الأَب فيما نشاهده .

وأما الابن فوضعه أن يكون مُوَقِّراً لأَبيه ، مُعَظِّماً له ، شديد الحياء منه ، ممتثلاً أوامره ، ملاقياً لها بالإجلال والتعظيم وعدم المخالفة ، واقفاً عندما يأْمره به وينهاه عنه . ٣٤و

والله عز وجل إذا قيس إحسانه إلى كل نبى[٢] ورحمته له وشفقته عليه ، وماجلبه له من الخير ، وما دفعه عنه من الشر ، ومابَيَّنه له مما هو لائق[٣] بجلاله ، ثم وَفَّقه للعمل بمقتضاه ، كان مايصنعه الوالد[٤] بالنسبة إلى هذا تافهاً حقيراً .

ثم توقير[٥] الأَنبياء أَيضاً لله وحياؤهم[٦] منه وانقيادهم[٧] لأَوامره ووقوفهم عند مناهيه وإجلالهم له ، أَعظم من صنيع الأَبناء مع آبائهم ، فهو لهم أَرحم أَب ، وهم له أَبر ولد ، فهذا سِر التجوز فى إطلاق مثل ذلك . فإذا تُجُوِّز فى إطلاق الأَب على الله كان معناه أَنه راحِم له عطوف عليه . وإذا تُجُوِّز بإطلاق البنوة على نفسه كان معناه أَنه مُوَقِّر لله ، مُعَظِّم له ، وهذا معنى قول عيسى عليه الصلاة والسلام مُحَرِّضاً على عدم قطع الرجاء ، أَى إن[٨] أَطعتموه فى ذلك صنع معكم مايصنع الوالد مع ولده . ٣٥ظ

---

(١) فى الأصل يزاد وهى مصحفة وصوابها بالراء (ع)

(٢) فى ب و س : شئ (٣) فى ج : أليق (٤) الوالد هنا يشير إلى مايصنعه الآباء نحو أبنائهم فى الحياة الدنيا وقد ترجما الأب شدياق بعبارة Ce que fait un père de la terre أى مايصنعه الأب (الذى يعيش) فى الأرض أى الدنيا (ع) (٥) فى الأصل : توقر ، والأصوب توقير (ع) (٦) فى الأصل : وحياهم والصواب ماأثبتناه (ع) (٧) فى ج إنقادهم

(٨) « إن سقطت فى ب و س

وهذا أيضًا معنى قول تلميذه : « فهو من الله مولود[١] » فانظر إلى سِر ماوقف[٢] عليه الأنبياءُ ، ثم أذِن لهم فى إطلاقه مُعَوِّلين على فهم من له تحصيل يصرفه عن الخيالات الفاسدة وهاهم الآن أنفسهم مقيمون على إطلاق ذلك . فإذا رأوا راهباً أو قسيساً قالوا له : « ياأبانا » ، وليس هو أباهم حقيقةً ولكن مرادهم بالإطلاق ماأشرنا إليه ، وهو أنهم يُنزِلونه فى الشفقة منزلة الأب ، ويُنْزِلون أنفسهم فى توقيره منزلة الأبناء .

وقد صَرَّح داود عليه السلام بما أشرنا إليه فى مزاميره فقال : « كما يترأف الأب على بنيه كذلك يترأف الرَّب على خائفيه[٣] . » فقد ثَبَتَ بما ذكرناه أن إطلاق البنوة عليه غَيْرُ مُثْبِت ، خصوصية يقع بها تمييز .

وصريح الإنجيل ناطق بصحة هذا التأْويل ، وهو قوله : ٣٦و « فأعطاهم سلطَاناً أن يصيروا بَنِى الله[٤] . » أى أعطاهم مايتمكنون به من تحصيل ماذُكِر من المعانى المستفادة من الأُبوة على حَد ما أُوِّل .

* * *

---

(١) الرسالة الأولى ليوحنا الإصحاح ٥ عدد ١ (ع) (٢) فى ج : وقعت

(٣) سفر المزامير ، المزمور ١٠٣ عدد ١٣ (ع)

(٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٢ ولفظه : « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاداً لله أى المؤمنون باسمه » . (ع)

خاتمة[١] : هى من أعظم معضلاتهم التى يُعَوَّلون عليها مُثْبتين بها إلٰهية عيسى عليه السلام ، جعلها يوحنا فاتحة إنجيله وهى : « فى البدءِ كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وإله هو الكلمة ، كان هذا قديماً عند الله ، كُلٌّ به كان ، وبغيره لم يكن شىءٌ مما كان[٢] . » إلى آخره وهو قوله : « والكلمة صار جسداً وحَلَّ فينا ورأينا مجده[٣] » .

أما أول هذا الفصل فلا تعلق له بثبوت الإلٰهية لعيسى عليه السلام بوجه ، لأنهم يعتقدون أنهم ذات البارى واحدة فى الموضوع ، ولها إعتبارات ، فإن اعتبرت مقيدة بصفة لايتوقف وجودها على تقدم وجود صفة قبلها كالوجود فذلك المسمى عندهم بأقنوم الأب .

وإن اعْتُبِرت موصوفة بصفة يتوقف وجودها على تقدم[٤] وجود صفة قبلها كالعلْم ، فإن الذات يتوقف اتصافها بالعلم
٣٦ظ على اتصافها بالوجود فذلك المسمى عندهم بأقنوم الابن والكلمة وإن اعتبرت بقيد كون ذاتها معقولة لها فذلك المسمى عندهم بأقنوم روح القدس .

---

(١) خاتمة لم ترد فى ب و س . (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١ : ٣ ولفظه : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان و بغيره لم يكن شىء « مما كان » . (ع) (٣) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٤ وقد جاء فيها فى كل من الترجمة الإنجليزية and dwelt among us والترجمة الفرنسية elle a habitè parmi nous والترجمة العربية : وحل بيننا وذلك بدلا من وحل فينا التى وردت فى الرد الجميل . ونرى أن هذا التصحيح يقوى من حجة الغزالى إذ ينفى حجة الحلول . (ع) . (٤) تقدم : لم ترد فى ج

فيقوم إذاً من الأَب معنى الوجود ، ومن الكلمة والابن معنى العالِم ، ومن روح القدس كون ذات البارى معقولة له[1] . هذا حاصل هذا الاصطلاح ، فتكون ذات الإله واحدة فى الموضوع ، موصوفة بكل أُقنوم من هذه الأَقانيم .

ومنهم من يقول إن الذات إن اعتُبِرت من حيث هى ذات ، لاباعتبار صفة البتة ، فهذا الاعتبار عندهم عبارة عن العقل المُجَرَّد وهو المسمى بأُقنوم الأَب . وإن اعتبرت من حيث هى عاقلة لذاتها فهذا الاعتبار عندهم عبارة عن معنى العاقل ، وهو المسمى عندهم بأُقنوم الابن والكلمة . وإن اعتبرت بقيد كون ذاتها معقولة لها فهذا الاعتبار عندهم هو المسمى بأُقنوم معنى
٣٧و المعقول[2] وروح القدس .

فعلى هذا الاصطلاح يكون العقل عبارة عن ذات الإله فقط والأَب مرادفاً له . والعاقل عبارة عن ذاته بقيد كونها عاقلة لذاتها والابن والكلمة مرادفَيْن له . والمعقولية عبارة عن الإله الذى ذاته معقولة له وروح القدس مرادفاً له .

فقد ثبت بهذين الاصطلاحين أَن الكلمة عبارة عن الذات الموصوفة بالعلم والعقل . وكذلك الابن ، فإذاً كل منهما أُقنوم مدلوله العالِم أَو العاقل . فقوله : « فى البدء كان الكلمة » ، يريد فى البدء كان العالِم . وقوله : « والكلمة كان عند الله » ، معناه والعالِم لم يزل موصوفاً به الإله ، يريد أَن هذا الوصف
٣٧ظ لم يزل ثابتاً للإله . « وكان » ههنا بمعنى لم يزل .

(١) له : سقطت فى ب و س (٢) معنى المعقول ، لم ترد فى ج

وقوله : « وإلٰه هو الكلمة » ، معناه وهذه الكلمة التى مدلولها العالِم ذلك العالِم هو الإله . وقوله : « كان هذا قديماً عند الله » ، معناه : لم يزل مدلول هذا الاعتبار وهو العالِم الذى هو مدلول الكلمة موصوفاً به الإله ، وهو إلٰه لأنه أخبر عنه بذلك بقوله : « والله هو الكلمة » ، ليقطع بذلك وَهْمَ مَنْ يعتقد أن العالِم الذى هو مدلول الكلمة غير الإله .

هذا اعتقادهم فى هذه الأقانيم ، وكلام شارح إنجيلهم فى أول هذا الفصل . وإذا صَحَّت المعانى فلا مشاحَّة فى الألفاظ ولا فيما يصطلح عليه المصطلحون . فقد وضح بما شرحوه أن أول هذا الفصل لادلالة فيه على الإلٰهية لعيسى عليه السلام البتة.

بقى فى الفصل شبهتان فيهما مَزَلُّ القدم : الأولى قوله : « كان إنسان أُرْسِل من الله اسمه يوحنا ، هذا جاء للشهادة ليشهد
٣٨و للنور ليؤمن الكل به ، ولم يكن هو النور بل ليشهد للنور الذى هو نور الحق الذى يضيء لكل إنسان آت إلى العالَم ، فى العالَم كان ، والعالَم به كُوِّن ، والعالَم لم يعرفه[1] » .

فنقول الموصوف فى هذه الكلمات بأنه لم يزل فى العالَم وأن العالَم كُوِّن به ، إما أن يكون هو الناسوت منفكاً عن تعلقه باللاهوت ، أو باعتبار تعلقه به ، وإما أن يكون هو اللاهوت

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ٦ : ١٠ ولفظه : « كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا ، هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكى يؤمن الكل بواسطته ، لم يكن هو النور بل ليشهد النور ، كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتيا إلى العالم ، كان فى العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم . (ع) .

من حيث هو لاهوت ، أو باعتبار تعلقه بالناسوت وهو ظهوره فيه ، وإما أن يكون هو الحقيقة الثالثة . والكل باطل إلا اللاهوت من حيث هو لاهوت .

وأما بطلان الناسوت فضرورى سواء قلنا إنه مُنْفَكّ عن تعلقه باللاهوت أو باعتبار تعلقه به . أمّا مع الانفكاك فظاهر
٣٨ظ وكذلك مع التعلق لأن تعلقه باللاهوت حادث لأن التعلق ماحصل له إلا بعد خلقه ، فكيف يوصف بتكوين العالَم وأنه لم يزل فيه ؟

وكذلك أيضاً الحقيقة الثالثة لأن الحقيقة الثالثة أحد جزأيها الناسوت وهو حادث ، فيلزم أن تكون معدومة قبل خَلْقه ، ويستحيل وصفها إذاً بما ذُكِر . وكذلك اللاهوت باعتبار ظهوره فى الناسوت لأن ظهوره[1] فيه إنما حدث عند خلقه للناسوت . فإذا حكمنا على اللاهوت بما ذُكِر باعتبار هذا التعلق الحادث استحال وصفه بما ذُكِر .

فلم يَبق إلا أن تكون هذه الأوصاف عائدة إلى الإله جَلّ اسمه من حيث هو إله لا باعتبار انضمامه إلى الناسوت ولا باعتبار انضمام الناسوت إليه . فحينئذ يجب صرف هذا الكلام إلى الله عز وجل . ويكون تقدير الكلام : بل ليشهد للنور الذى
٣٩و هو نور الحق الذى يضىء به الحق على كل إنسان لأن الحق

---

(١) فى ج : حدوثه

جَلَّ اسمه هو الذى يهدى كل أحد بنور معرفته إلى المعارف الحقيقية[1] ويَقِفُه بإضاءته على دقائق مصنوعاته التى لاتهتدى إليها العقول إلا بنور هدايته . هذا معنى واضح غنىّ عن الإطالة .

وقد أُطلق النور فى الإنجيل والمراد به الهداية وهو قوله عليه السلام : « مادُمْتُ فى العالم فأنا نور العالم[2] » صَرَّح بذلك يوحنا فى الفصل الثانى والعشرين . وقوله أيضاً : « إنما جِئتُ نور العالم[3] » . صَرَّح أيضاً بذلك يوحنا فى الفصل الخامس والعشرين ، وهذا التصريح يؤكد ماذهبنا إليه من التأويل فى حمل النور على الهداية .

الشبهة الثانية : قوله فى آخر الفصل : « والكلمة صار جسداً وحَلَّ فينا ورأينا مَجْدَه[4] » .

٣٩ظ لابد من حكاية وضع هذا اللفظ كيف كان[5] فى القبطى ليُعْلَم بذلك زللهم عن مقتضى وضعه[6] وصرفهم وضعه عن مفهومه الموافق إلى مفهوم مصادم لبديهة العقل .

وضع هذا اللفظ : « وُه بيصاجى أَفأَر أَوُ صركس[7] » . مفهوم هذه الكلمات فى القبطى : « والكلمة صنع جسداً » ، لأن « أَفأَر » مفهومها فى القبطى : « صَنَع » . وعلى هذا

---

(١) فى ج : الخفية (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ٩ عدد ٥ (ع)
(٣) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٢ عدد ٤٦ ولفظه : أنا قد جئت نوراً إلى العالم . (ع)
(٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٤ والأصوب حل بيننا بدلا من حل فينا وهذا التصويب يوجد فى كل من الترجمات العربية والانجليزية والفرنسية (ع) (٥) كان ، لم ترد فى ب وس (٦) وضعه ، لم ترد فى ج (٧) أفأر فى ب . وفى ج : أفاو واسركس

الوضع لم يبق إشكال البتة ، بل يكون اللفظ صريحاً بأن العالِم الذى قام من أُقنوم الكلمة الذى عَبَّر عنه بأنه إله ، بقوله : « وإله هو الكلمة صنع جسداً وحَلَّ فينا ورأينا مجده » . أى ذلك الجسد الذى صنعه الإله هو هو عيسى عليه السلام ، وهو الذى ظهر ورُئِىَ مجده .

وقد اعتذروا عن العدول عن هذا المفهوم الظاهر أن قالوا : هذه الكلمة وُضِعت بالاشتراك فى القبطى[1] بين صَنَع وصار . وهذا الاعتبار يطلب اعتذاراً[2] بل هو من المضحكات لأن اللفظ ٤٠و المشترك يتعيَّن حمله على أحد مفهوماته بأيسر قرينة مُشْعِرة بأن المراد منه هذا المفهوم . فما شأنك[3] تُحَاكِم العقل الموجب حمله على ما أشرنا إليه . ثم إن مترجم هذه اللفظة إذا سُلِّم له كونها وُضِعت بالاشتراك يكون قد ارتكب فيها عكس القضية فى المشترك . لأن المشترك إذا تردد بين مفهوماته عَيَّنته القرائن ، وهو فى هذه الكلمة قضى بصرف اللفظ عما هو واجب الإرادة وحمله على مايقضى صريح العقل بعدم إرادته ليحصل له بذلك أن الإله العالِم صار جسداً .

لا أعرف أحداً اجترأ على الله كجرأة هذه الطائفة فوالله[4] لايوجد خِزْىٌ أفحش من خزى قوم يعتقدون أن إله العالم

---

(١) فى القبطى لم ترد فى ب و س . (٢) الأصوب : وهذا الاعتبار لا يقتضى اعتذاراً (ع) (٣) فى ج : فا بالك .

(٤) فى الأصل : لاهاء الله ذا لايوجد ، وقد أصلحناها بما يقتضيه السياق . (ع) . هذا والعبارة التى تبدأ من لاهاء الله إلى ولياً مرشداً لم ترد فى ج

٤٠ظ قُبر . وقد شيَّنو ا بذكر ذلك قائلين : بل يجب أن يُصَام فى ذلك السبت وحده لأن صانع البريَّة كان فيه مقبوراً . صُرِّح بذلك فى قوانينهم المُدَوَّنة عن أكابرهم ورسلهم . « وَمَنْ يُضْلِلْ فلن تَجِدَ له وليًّا مُرْشِداً[1] ».

فإن قيل : إنما حُمِل على هذا المفهوم لقرائن رَجَّحت حَمْلَه عليه .

فالجواب : إن كل مُرَجَّح كان مصادماً للمعقول رُدَّ غيرمُعَوَّل عليه ، مع أن تسمية ماهذا شأنه مُرَجَّحاً جَهْلٌ ، والقائل به ليس له هادٍ عِلْمىٌ يَقِفُه على نهج الحق .

ثم إن[2] اقتصرنا على بيان هذا الأمر الواضح الذى ارتكبوا فيه التحريف إلى أن صَيَّروه شُبْهَة ، كفانا ذلك[3] فى دفع هذه الشبهة . وإن أردنا قطع النزاع مُسَلِّمين أن هذه الكلمة وُضِعت بالاشتراك ، وقد احْتَفَّت بها قرائن رَجَّحت حملها على « صار » دون « صنع » ، فالجواب أيضاً عن الشبهة واضح . وببيانه :

٤٠و أن اللفظ على هذا التقدير لايَعْرِض لعاقل وَقْفة فى صرفه عن ظاهره ، وبيان ذلك أن الكلمة التى ذُكِرت فى أول الفصل صُرِّح بأنها إلٰه بقوله : « وإلٰه هو الكلمة » ، فكيف يُحْكَم على الإله بأنه صار جسداً ؟

---

(١) هذا جزء من الآية ١٧ من سورة الكهف (ع) . (٢) إن ، لم ترد فى ج (٣) ذلك ، سقطت من ب ، وفى ج : بذلك .

وتصحيح هذا الكلام أن الكلمة عندهم عبارة عن الذات باعتبار صفة العلم أو النطق كما تقدم فى أول الفصل ، فحينئذ تكون دالة على الذات الموصوفة بالعلم أو النطق . وهذا الإطلاق ليس مختصاً بالإله لأن اللفظ المُشْكِل كيفما تردَّد يُسْتَعْمل فى كل[1] فرد من أفراده حقيقة ، فحينئذ تكون الكلمة موضوعة للذات بقيد العلم أو النطق مع قطع النظر عن كون الذات موصوفة بالجسمية أو منفكة عن هذا الوصف .

فنى أول الفصل أُطلقت الكلمة على العالِم المنفك عن الجسمية حقيقة الذى هو إله ، وفى آخر الفصل أُطْلِقت على العالِم أو الناطق الموصوف بالجسمية حقيقة الذى هو رسول أيضاً ، فيكون إذاً معنى قوله : « والكلمة صار جسداً » أى أن ذلك الإله العالم الذى كان مدلول الكلمة كان منفكاً عن الجسمية ، وقد صار مدلولها الآن عالِماً موصوفاً بالجسمية وهو الرسول ٤١ظ
لأنها إذا وُضِعت للذات بقيد العلم قام منها معنى العالِم لامحالة .

هذا كله بعد التسليم[2] بأن الكلمة موضوعة للذات بقيد الصفة من حيث إنها ذات . فإن ادُّعِى أن ذلك مُخْتَصّ بذات الإله كان إطلاقها على عيسى عليه السلام بطريق المجاز لأن المشاركة فى مفهومها ثابتة ، وهى من أعظم مُصَحِّحات المجاز . ولايُرَدّ هذا التأويل بقول القائل إنه على خلاف الظاهر لأنه

---

(١) كل ، سقطت فى ب . (٢) فى الأصل : هذه كله بعد تسليم أن الكلمة ، وقد أجرينا بها تصويبات يسيرة . (ع) .

لامعنى للتأويل إلا صرف الكلام من ظاهره لدليل يأبى إبقاءه على حقيقته .

فإن قيل : إنما يكون هذا التأويل مقبولاً إذا كان الكلام متعلقاً بعضه ببعض لاسيما كلام الإله جل اسمه .

٤٢و فالجواب : أن المعقول إذا حَكَم باستحالة بقاء اللفظ على ظاهره وجب تأويله . فالتأويل إذاً صرف اللفظ عن ظاهره كما ذكر وحَمله على ماهو جائز الإرادة فحينئذ لايبقى للمتعلق بظاهره حجة لمخالفة المعقول وإمكان التأويل .

ونحن الآن نُبَيِّن عدم تباين كلمات هذا النص وحَمْلها على ماهو سائغ الإرادة على حكم ما أولناه فنقول :

قد ثَبَت أن الحق جَلَّ اسمه هو الذى يضيء بنوره على كل إنسان آتٍ ، ويكشف له به غِطاءَ كل خَفِيَّة ، وذلك مُصَرَّح به فى هذا النص بقوله : « ليشهد للنور الذى هو نور الحق الذى يضيءُ لكل إنسان » . وقوله : « فى العالَم كان » ، هذا يصلح أن يكون وصفاً للنور ، ويصلح أن يكون وصفاً للحق جَلَّ اسمه ، لأن هداية الله تعالى وإيضاحه لكل خَفِيٍّ وكشفه

٤١ظ الغِطاء عن كلّ شبهة لم يزل ذلك ثابتاً فى العالَم .

قوله : « والعالَم به كُوِّن »[1] .هذا وصف للحق جَلَّ اسمه . وقد صَرَّح بذلك فى أول الفصل بقوله : « كُلٌّ به كان » .

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٠ (ع)

فليت شعرى أى عذر لمن يحمل هذا على عيسى عليه السلام مع هذا التصريح وهو قوله فى وصف الإله[1] فى أول الفصل : « وبغيره لم يكن شئ مما كان » ؟

قوله : « إلى خاصيته جاء » ، أى إلى خاصية الحق ظهر نوره الذى هو عبارة عن هدايته وإرشاده ، إذ بنوره يهتدى كل مُهْتَدٍ. والمراد بمجىء النور ههنا ظهوره ، لأن وصف المعانى بالمجىء محمول على ظهورها[2] .

قوله : « وخاصته لم تقبله » ، المراد بالخاصة مَنْ دُعِى للهداية أى وخاصته الذين دعُوا لهدايته ولم يقبلوا هدايته .

قوله : « فأما الذين قَبِلوا » ، أى فأما الذين قَبِلوا هدايته ، وهم غير الذين لم يَقْبَلوا ، يدل على ذلك إيراد الكلام بأمَّا
٤٣و التى هى للتفصيل فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا بنى الله ، كان ا الأَحْضَر أن يقول : أن يصيروا بنيه ، وإنما عَدَل عن ذلك ليُصَرِّحَ بذكر الاسم المُعَظَّم وهو الله لأجل شرف النسبة لِيَعْظُم وقع ذلك فى النفوس . ثم قال : « الذين يؤمنون باسمه الذين ليس هم من دم ولا من هواء نحم ولا مشيئة رجل لكن وُلِدوا من الله[3] » . يريد أن هذه البنوة التى حَصَل لهم بها شرف النسبة ليست من قبيل البنوّات التى من شأنها أن تَحْصُل عن

---

(١) فى وصف الإله ، لم ترد فى ب و س

(٢) فى ج : ظواهرها . (٣) إنجيل يوحنا الإصحاح ١ عدد ١٣ ولفظه : الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله . (ع)

مشيئات الرجال وإلمامهم بالنساء وتكوّن اللحوم والدماء بل المراد بذلك الإفراط فى القُرْب والرأفة بهم على حكم ما سلف .

ثم عطف على أول الفصل مُبَيِّناً أن من أحكام الكلمة التى قام منها معنى العالِم أن تطلق على العالِم[1] سواءٌ كان منفكاً عن الجسمية كذات البارى أو غير منفك كذات الرسول .

وقد سلكوا[2] فى تأويل الأقانيم مسلكاً لزمهم القول بوجود ثلاثة آلهة فى الذهن والخارج ، متباينة ذواتها وحقائقها أونفى
٤٢ظ ذات الإله جل اسمه ، وذلك أنهم جعلوا الأب عبارة عن الذات بقيد الأبوة ، والابن عبارة عن الذات بقيد البنوّة ، وروح القدس عبارة عن الذات بقيد الانبثاق ، ثم يقولون إله واحد .

فإذا ضو يقوا فى ذلك وتبيّنوا أن ذات الأب مختصة بصفة[3] الأبوة غير قابلة لوصفها بالبنوة ، وكذلك القول فى الابن وروح القدس ، وليست من الذوات المتضائفة فَتُقَدَّر أبًا لشخص وابناً لغيره ، قالوا إن الذات واحدة ووصفها بجميع هذه الصفات ممكن ، لكنا إذا وصفناها بصفة قدرنا نفى مايباينها . وهذا مكان الجهل والغفلة لأنهم يقولون بِقِدَم هذه الذوات أزَلاً وبِقِدَم صفاتها ، فإذاً هى ملزومات الصفات[4] ، وصفاتها لازمة
٤٤و لها ، ومتى وُجد الملزوم وُجِد اللازم ، ومتى انتفى اللازم انتفى

(١) أن تطلق على العالم ، لم ترد فى ب .
(٢) من أول : وقد سلكوا إلى المعضلة الثانية لم ترد فى ج .
(٣) فى ب : مختصة بذات
(٤) الصفات لم ترد فى س

الملزوم . فإذا قُدِّر نفى الصفة اللازمة للذات قُدِّر نفى الذات ، وإلى هذا المعنى أشار الكتاب العزيز بقوله[١] : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ[٢] »

المغضلة الثانية : ذكرها يوحنا فى الفصل الخامس والعشرين : « إبراهيم أبوكم اشتهى أن يرى يومى ، فرأى وفرح ، فقال له اليهود : لم يأت لك بعد خمسون سنة أفرأيت إبراهيم[٣] ؟ فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم إنى قبل أن يكون إبراهيم[٤] » . هذا آخر كلامه .

فنقول : إذاً هذا الكلام ناطق بالمجاز لأن إبراهيم عليه السلام لم يَرَ يوم ولادته ، ولا يوم إرساله ، ولا يوم حصول الحقيقة الثالثة له كما يَزْعُمون ، لأن هذه كلها حدثت بعد إبراهيم ، بل المراد من ذلك أن الأنبياء يُحبُّون دوام طاعة الله ، ٤٤ظ ودوام إظهار شرائعه المتكفلة بمصالح العباد ، فلما أُعلِم إبراهيم عليه السلام برسالة عيسى وهدايته للعالَم ، وما يظهر على يده من مصالح العباد على ما اقتضته شريعتُه سُرَّ بذلك . فالرؤية ههنا محمولة على البصيرة التى هى العلم لا على البَصَر .

وقد صَرَّح بولص فى رسالته التى سَيَّرها إلى قورنتية بأبلغ من ذلك . وهذا يدل على أنه أراد عين[٥] ما أردناه ، فقال :

---

(١) بقوله ، لم ترد فى ب (٢) سورة المائدة آية ٧٣ (ع) .

(٣) فى الأصل : وقد رأيت إبراهيم وصوابها أن تكون جملة استفهامية كما فى نص الترجمة العربية . (ع) .

(٤) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ عدد ٥٨ ولفظه قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن : (ع) (٥) عين ، لم ترد فى س

«ولكنا ننطق بحكمة الله الخفية بالسِّرالذى لم يزل مستتراً عن العوالم[١] ، وكان الله تقدم فقررها قبل العالمين[٢] » يريد أن هذه الأحكام مُقَرَّرَة فى علم الله قديما[٣] ، فليست إذاً تقوُّلاً ولا افتراءً وهذاعين ما أوَّلناه .

وقد صَرَّح فى قصص الرسل فى الفصل الثالث بمثل ذلك عظيم تلامذته بطرس بن يُونا المعروف بشمعون الصفا قائلاً :

٤٥و «يابنى إسرائيل اسمعوا هذا الكلام إن يسوع الناصرى رجل ظهر عندكم من الله بالقوى والآيات التى فعلها الله على يديه بينكم ، كما تعلمون أنتم ، فهذا الذى كان مقرراً لهذا من سابق علم الله ومشيئته[٤] » .

صَرَّح هذان العظيمان عندهم بعين ما أولناه ، وزاد ابن يُونَا زيادة فصَرَّح بأنه رجل ، وصَرَّح بأن القوى والآيات التى ظهرت على يديه ليست واقعة بفعله ، بل صَرَّح بأن فاعلها إنما هو الله بقوله : « رجل ظهر عندكم من الله بالقوى والآيات التى فعلها الله على يديه » . وهذا التلميذ المُصَرِّح بمجموع ماذكُر لايَسَع أحداً منهم أن يخطر بباله مخالفته . وصريح الإنجيل ناطق عموماً وخصوصاً بوجوب متابعته والوقوف عند أقواله .

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ٢ عدد ٧ : ٨ (ع)

(٢) عن العوالم لم يرد فى ج وس . (٣) قديماً لم ترد فى ب و س

(٤) أعمال الرسل الإصحاح ٢ عدد ٢٢ : ٢٣ (ع)

أما عموماً فقوله لتلامذته : « الحق أقول لكم إن كل ماربطتموه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وما حللتموه
٤٥ظ على الأرض يكون محلولاً فى السموات[١] » . وأما خصوصاً فقوله مخاطباً له : « أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبنى بيعتى[٢] » ثم قال له : « وما ربطته على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وماحللته على الأرض يكون محلولاً فى السموات[٣] »

صرّح بمجموع ذلك كله أعنى الخصوص والعموم متّى فى إنجيله . وقوله أيضاً : « ارعَ خرافى ارعَ كباشى ارعَ نعاجى[٤] » يريد بذلك طوائف أُمته . صرّح بهذه الكلمات يوحنا فى آخر إنجيله .

ويدل على صحة هذا التأْويل أيضاً قوله : « إنى قبل إبراهيم[٥] » القَبْليَّة ههنا مُحَال أن تكون مضافة إلى ناسوته لاباعتبار إنفكاكه عن اللاهوت ولاباعتبار تعلقه به . ومُحَال أن تكون أيضاً
٤٦و مضافة للحقيقة الثالثة ، لما تَبيَّن أن هذه كلها حوادث لم تكن موجودة عند وجود إبراهيم عليه السلام .بل المراد بالقَبْليَّة علمه

---

(١) لم نعثر على هذا النص فى المَوْضع الذى أشار إليه الأب شدياق وهو إنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠ عدد ٢٣ ولكنه فى إنجيل متى مع اختلاف فى العبارة (ع) (٢) إنجيل متى الأصحاح ١٦ عدد ١٨ ولفظه : وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها (ع) (٣) الموضع السابق عدد ١٩ (ع) . (٤) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٢١ عدد ١٥ : ١٧ وينتهى الأول فيها بعبارة ارع خرافى والثانى والثالث ارع غنمى (ع) (٥) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ عدد ٥٨ ولفظه : قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن . (ع)

بتقدير الإرسال ، وما يترتب عليه من الإرشاد ، هذا هو المعنى الذى حمله على السرور .

فإن قيل : فأى خصوصية له فى ذلك ؟ إذ هذا المجمل مشترك بينه وبين سائر الأنبياء ، بل وبين كل موجود .

فالجواب : أنه لم يذكر ذلك فى مَعْرِض الخصوصية وإنما ذكره قاطعا به استبعاد اليهود لسرور إبراهيم وفرحه بيومه ، وتصحيحاً لصدقه فيما أخبر [به] لأن الأنبياء إذا صدر عنهم مثل ذلك إنما يصدر فى مَعْرِض التكذيب لأقوالهم ، وأن مايَدَّعونه من الرسالة[1] ليس ثابتاً فى نفس الأمر ، فيكون ذلك ردّاً على المُكَذِّب وإعلاماً له بأن هذه الدعوى ثابتة فى نفس الأمر مقررة فى علم الله قديماً .

ويدل على صحة هذا التأويل أن عيسى عليه السلام إنما ورد منه ذلك حين أعظمَ عليه اليهود قوله ، قائلين : « لم يأْتِ لك بعد خمسون سنة » . فذكر حينئذ الجهة الصحيحة لسرور إبراهيم . فتحصل لهم بذلك استمالة مكذبيهم إلى
٤٦ظ صدقهم فيما يَدَّعونه من النبوة والرسالة ، وتقوية ظنون مصدقيهم الذين لم يصلوا إلى درجة العلم . وقد ورد مثل ذلك فى ألفاظ سيد المرسلين حيث قال : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين[2] » .

---

(١) من الرسالة : سقط فى س (٢) ورد هذا الحديث بعبارة مختلفة وهى : « قد كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » فى الجامع الصغير للسيوطى كما أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وابن سعد عن أبى الجدعاء وأبو نعيم فى الحلية. (ع)

ويجوز أن يكون عيس عليه السلام ذكر ذلك فى مَعْرِض الخصوصية ، وهو إعلام إبراهيم بمجموع رسالته ومايترتب عليها من الهداية وإظهار ماظهر على يده من المعجزات المختصة به دون من عداه من الأنبياء السالفة قبله . هذا معنى حَسَن الإرادة فكيف تُثْبَت إلهية إنسان بدليل هذا شأنه ؟ .

الشبهة الثالثة : نَصَّ عليها ابن زَبَدى فى الفصل الأول من فصول الفار قليط[1] : « قال له فيلبس : ياسَيِّد أرنا ٤٠و الأَب وَحَسْبُنَا . فقال له يسوع أنا معكم كلّ هذا الزمن ولم تعرفنى يافيليب ؟ من رآنى فقد رأى الأَب ، فكيف تقول أَنْتَ أَرِنا الأَب ؟ أما تؤمن أنى فى الأَب والأَب هو فى ؟ وهذا الكلام الذى أتكلم به ، ليس هو من عندى بل أبى الذى هو حالّ فىّ ، هو يفعل هذه الأفعال . آمنوا بى إنى أنا فى الأَب والأَب هو فىّ وإلا فآمنوا من أجل الأعمال . الحق الحق أقول لكم : إن من يؤمن بى ويعمل الأعمال التى أعمل وأفضل منها يصنع لأنى ماضٍ إلى الأَب[2] » . هذا آخر كلامه .

فأقول : هذا النص كالنص الذى أنكر اليهود إطلاقه واعتذر عنه ضارباً لهم المثل ، وقد مضى القول فيه مُبَيَّناً ، ٤٧ظ وزاده ههنا بياناً ، وضع فيه ماعادته أن يضعه[3] وهو أنه

---

(١) الفار فليظ أى المعزى بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر الزاى المشددة وتطلق على الروح القدس (ع) (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ عدد ٨ : ١٢ (ع)

(٣) فى الأصل : أن يصنعه والأصوب أن يضعه (ع)

صلوات الله عليه لم يأت قط بُلْبُسَة[1] إلا واتبعها كاشفاً يُظْهِر خفاءها . وبيان ذلك أنه حين سُئِل أن يُريهم الإله ، وكان ذلك مما لايمكن إسعافهم به ، عَدَل عن مَسْئولهم قائلاً : « من رآنى فقد رأى الأب » . يريد أن الإله لما كانت رؤيته غير ممكنة للعباد أقام الأنبياء فى تبليغهم أحكامه مقام نفسه . وهذا شأن الملوك المحتجبين ، فبأمره يأمرون وبنهيه ينهون وبأحكامه يحكمون .

ثم صَرَّح بعدم إرادة ظاهر[2] هذا اللفظ فقال : « وهذا الكلام الذى أتكلم ليس هو من عندى » . ثم بالغ فى البيان فقال : « بل أبى الذى هو حال فىّ يفعل هذه الأفعال » . يريد أن أقواله ليست للإله بقيد كونها مفردة بل وأفعاله أى
٤٨و وكل كلام صدر منى متضمناً حكماً فهو من الله لأنى عنه أُخْبِر ، وكل ماترونه من الأفعال الباهرة للعقول الناطقة بخوارق الأنبياء فذلك فِعْلهُ لأنه واقع بقدرته .

وقد سلف منا تصريح بولص الرسول بما يَعْضُد هذا التأويل وذكرنا لفظه : « وهو الله الواحد هو . والوسيط بين الله والناس واحد هو[3] الإنسان يسوع المسيح[4] » .

---

(١) اللبسة بضم اللام أى الشبهة وفى الصحاح : وفى الحديث : فى الأمر لبسة أى شبهة ليس بواضح وفى أساس البلاغة : فى أمره لبس ولبسة إذا لم يكن واضحاً (ع) .

(٢) ظاهر ، لم ترد فى ج

(٣) واحد هو ، لم ترد فى ب ، وس .

(٤) رسالة بولص الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الثانى عدد ٥ ولفظه : « لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح . (ع) .

ثم أتى بعد ذلك بما لا يُتَصَور معه إرادة ظاهر هذا اللفظ الدال على أنَّه هو الإله ، فقال مُصَرِّحاً بعدم إرادة ظاهره ، ومُرَغِّباً لهم فى تعاطى الأسباب التى وصل بها إلى مثل ذلك : « الحق الحق أقول لكم إن من يؤمن بى يعمل الأعمال التى أعمل ، وأفضل منها يصنع[1] » صَرَّح بجهة المجاز ، إذ لا
٤٨ ظ يُتَصَور لأحد من البشر أن يكون أفعاله أفضل من أفعال الإله بوجه .

ثم أكد البيان بقوله : « لأنى ماضٍ إلى الأب[2] » ولو كان الأب حقيقة لما قال : لأنى ماضٍ إلى الأب ، إذ لا يُتَصَور لأحد أن يقول : أنا ماض إلى زيد ، ويكون هو عَيْن زيد .

وقوله : « أمَا تؤمن أنى فى الأب والأب هو فى[3] ؟ » يريد بذلك عدم التباين فى الأحكام والإرادات ، على حَد ما أسلفناه فى إطلاقه الحلول . ويدل على ذلك أنه أتبعه بقوله : « وهذا الكلام الذى أتكلم به ليس هو من عندى[4] » فليتأمل المتأمل هذا النص كم اشتمل على تصريح وتضمن من قرينة تدل على أنه غير الإله ، فكيف يُجْعل نفس الإله ؟ بل لو كان هذا النص كُلُّه لُبْسَة لما جاز معاندة المعقول واعتقاد ذلك ، فكيف والحالة هذه ؟ « الْحَمْد لله الذى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كنا لنَهْتَدىَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله[5] » .

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ عدد ١٢ (ع) (٢) المصدر السابق (ع) (٣) المصدر السابق عدد ١٠ (ع) (٤) المصدر السابق (ع) (٥) سورة الأعراف آية ٤٣ (ع) .

٤٩ و ويَحْتَمل هذا النص وجهاً آخر يَعْضُده ما ورد مُصَرِّحاً به فى إنجيل مَتَّى وهو قوله : « وليس أَحدٌ يعرف الابن إلا الأَب ، ولا أَحد يعرف الأَب إلا الابن[1] » . صَرَّح بأَن أَحداً لايعرفه إلا الإله ، فحينئذ يكون مُنْكِرا على السائل الطالب رؤية الإله بقوله : « لى معكم كل هذا الزمن ولم تعرفنى وأَنا إنسان » . مع أَن معرفة الإنسان ممكنة ، فكيف تتصور أَن تعرف الإله الذى لا يُتَصَور معرفته بحاسة البصر ولا يُتَبَيَّن كنه حقيقته بالأَجناس والفصول ؟ ثم عَدَل عن ذلك مُبيِّناً أَن الإله إنما تُطْلَب معرفته ليكون المُكَلَّف واثقاً بأَن هذه الأَحكام صادرة منه فقال : « من رآنى فقد رأَى الأَب[2] » أَى أَنا عنه أُخْبِر ، ثم أَوضح ذلك بقوله : « وهذا الكلام الذى أَتكلم به ليس هو من عندى[3] » ثم لم يقتصر على نسبة الكلام إلى الله عز وجل فقال : « بل أَبى الذى هو حالٌّ فىّ يفعل هذه الأَفعال[4] »

٤٩ ظ ثم ساق بقية الكلام[5] على حَدّ ما أَوَّل .

* * *

بقيت لهم شبهة لفظية وقعت لبعضهم ظناً منهم[6] أَن الكلمة حيثما أُطْلقت يجب أَن يكون المراد منها عَيْن ما اصطلحوا

---

(١) إنجيل متى الإصحاح ١١ عدد ٢٧ (ع) (٢) إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ عدد ٩ (ع) (٣) المصدر السابق عدد ١٠ (ع) (٤) المصدر السابق عدد ١١ (ع)

(٥) فى الأصل : ثم ساق نفسه فى الكلام ، وهى القراءة التى اعتمدها الأب شديانق عن نسخة ب وقد أضاف فى الحاشية أنها وردت فى ج بقية فى الكلام وفى س : بالكلام وآثرنا أن يكون التصويب : ثم ساق بقية الكلام . (ع) (٦) فى الأصل منه وجعلناها فى صيغة الجمع حتى تتفق مع كلمة لبعضهم (ع)

عليه فى أقانيمهم لتصحيح ما يتعذر عليهم إرادة ظاهره المتعدِّد الذات .

وهذا وهْم عظيم وعماية خيِّلت لهم[1] إن هذا الاصطلاح الذى حملهم ما أشرنا إليه من الضرورة على ما قالوا به يجب أن يكون مرادا لأهل كل شريعة ، فلذلك استُدِل على إلهية عيسى عليه السلام بما ورد فى الكتاب العزيز وهو قوله جَل من قائل : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً[2] »

٥٥و فأحببتُ أن أكشف غطاء هذه الشبهة ليكون الناظر فى هذا النص آمناً من الشبهات المُضِلَّة فأقول : المولود إنما يتكون مُسَبَّباً عن[3] سببين أحدهما فى الأُنثيين[4] وهو أحد نوعى القوة المُولِّدة وهى القوة التى يصير الدم فيها بحال يكون بها مستعدًّا لقبول قوة الحياة من واهب الصور. والثانى القوة الموجودة فى المَنِىّ إذا انتقل إلى الرحم ، وانضمت إليه سائر

---

(١) فى الأصل : « خيلت له » وقد جعلناها أيضاً فى صيغة الجمع (ع) .

(٢) فى الأصل تنتهى الآية حتى : « إنما الله إله واحد » وآثرنا إثبات تمامها . وهى الآية ١٧١ من سورة النساء . (ع) .

(٣) ابتداء من عن سببين إلى عبارة : « وإذا وضح هذان الأصلان » لم يرد فى ج .

(٤) الأنثيان الخصيتان عن المصباح المنير (ع) .

الشرائط. بأن يكون ماءً دافقاً صحيحاً قوياً لافساد فيه ولاضعف، ويكون الرحم صحيحاً لاعِلَّة به، ولم يحصل للمرأة عُقَيْب الجِماع حركة مزعجة عنيفة يحصل بها زلق المنى من الرحم، فحينئذ يستعد لقبول القوة المُصَوِّرة من واهب الصور، فإذا صار عنها تشكيلات الأعضاء كان ذلك كَوْناً للصورة العضوية وفساداً للصورة المنوية. فيستعد حينئذ لقبوله الروح من واهبها.

هذا هو السبب العادى فى تكوين كلّ مولود. وإذا ثبت ذلك فنقول: إن كل شىءٍ له سبب قريب وسبب بعيد، فالأكثر إضافته إلى سببه القريب، فيُقَال عند رؤية الرياض الخُضْر: انظر إلى صُنْع المطر، والله هو الصانع الحقيقى. ولو رؤى نبات نَضِر على صَلْد والشمس فى الأسد [1] لقيل: انظر إلى صُنْع الإله، فيُصَرَّحُ بالسبب الحقيقى لفوات السبب العادى.

وإذا وضَحَ هذان الأصلان فنقول: السبب القريب فى حق عيسى عليه السلام لَمَّا دلَّ الدليل على عدم وقوعه أُضِيف تكوينه إلى السبب البعيد وهو [2] الكلمة، لأن كل أحد مخلوق بكلمة الله القائل بها لكل مخلوق «كُنْ» فإذا هو كائن، فلهذا السبب [3] صَرَّح فى حقه بذلك إشارة إلى انتفاء السبب

---

(١) والصلد: الصلب الأملس. والشمس فى الأسد أى فى برج الأسد عند اشتداد هجير الصيف. (ع).

(٢) السبب البعيد وهو، لم يرد فى ج.

(٣) بدلا من عبارة فلهذا السبب، فى ج: إنما.

القريب العادى ، وأنه إنما كُوِّن بالكلمة التى هى « كُنْ » من غير مَنِىٍّ يمكن إضافة التكوين إليه على ماشُرِح .

ثم أوضح ذلك بقوله : « أَلْقَاهَا إِلَىَ مَرْيَمَ » . يريد أن الولد إنما يتكوَّن من إلقاء المَنِىّ إلى أُمه ، وهذا المولود لم يُخْلَقَ إلا بإلقاء الكلمة إلى أُمه التى هى عبارة عن الأمر بالتكوين ، فإذًا الإلقاءُ مجازى .

وقد ورد مثل ذلك فى حق آدم لما اشتركا فى عدم التكوين عن الأسباب العاديَّة حيث قال جَلَّ من قائل : « مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ[1] » . والله عزوجل لايَدَ له ، وإنما المراد : خلقتُه بقدرتى ، إشارةً إلى أنه لم يُكَوَّن من مَنِىٍّ وإنما كُوِّن بقدرته ، يشير بذلك إلى فوات السبب العادى . وإذا فات السبب العادى أُضِيف إلى السبب البعيد المُشَبَّه بالحقيقى وهو كلمة الله عز وجل .

وقد أُوتى بالمماثلة صريحًا فقال : « إِن مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٥٢ظ
اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[2] »
وكذلك أيضاً قوله : « وَرُوحٌ مِنهُ[3] » أى وهو روح تكوينه صادر عنه منفكاً عن الأسباب العادية التى يُضاف إليها السبب عادة ، فالصلة فى مكان الصفة للروح .

* * *

---

(١) سورة ص آية ٧٥ (ع) (٢) سورة آل عمران آية ٥٩ (ع)
(٣) من الآية ١٧١ من سورة النساء (ع)

فإن قيل : تمام هذه الحجة فرع لكون الكلمة سبباً ، وسَبَبِيَّتُها فَرْعٌ لردِّها لقاعدة الشرط ، ومايترتب عليه من الجواب ، وذلك ممتنع لِمَا يلزم من عدم المُغَايَرة بين المُسَبَّب وسببه .

قال الفارسى[1] : لوجاز أن يكون مثلُ ذلك جواباً لكان قوله تعالى : « كن فيكون » مُنْزلاً مَنْزِلة قول القائل : « اذهب فتذهب » ، وممتنع ذلك ، إذ يصير تقدير الكلام بالرد إلى قاعدة الشرط : « إن تَكُنْ تَكُنْ » و « إن تَذْهَبْ تَذْهَبْ » . فيكون حينئذ السَبَب عين المُسَبَّب ، ولذلك

٥٢ و أجمع القراءُ على الرفع[2] فيما وقع الاحتجاج به من الآية السالفة[3] ولم يتابع[4] الكسائى[5] ابنَ عامر[6] إلا فيما أمكن

---

(١) هو أبو على الفارسى النحوى ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان المتوفى سنة ٣٧٧ هـ صحب عضد الدولة البويهى وعلت منزلته عنده حتى قال عضد الدولة أنا غلام أبى على الفارسى النحوى وصنف له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو ، ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ١٣١ : ١٣٢ ،) وأورد له القفطى فى إنباه الرواة (ج ١ ص ٢٧٤) ثبتاً بمؤلفاته . وترجم له كثيرون منهم الزبيدى فى طبقات النحاة والبغدادى فى تاريخ بغداد (ج٧ ص ٢٧٥ : ٢٧٦) وياقوت فى معجم الأدباء (ج٧ ص ٢٣٢ : ٢٦١) والسيوطى فى بغية الوعاة ص ٢١٦ : ٢١٧ . (ع) .

(٢) أى رفع النون فى : فيكون (ع)

(٣) العبارة : « فيما وقع الاحتجاج به من الآية السالفة » لم ترد فى ب .

(٤) فى ج : يبلغ . (٥) هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان المعروف بالكسائى أحد القراء السبعة كان إماماً فى النحو واللغة والقراءات ، وكان مؤدب الأمين ابن الرشيد ، توفى سنة ١٨٩ هـ بالرى وكان قد خرج إليها فى صحبة هارون الرشيد . قاله السمعانى . مات محمد بن الحسن الشيبانى والكسائى فى يوم واحد بالرى وقيل إن الرشيد كان يقول دفنت الفقه والعربية بالرى . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ٣٣٠ : ٣٣١) وترجم =

أن يكون انتصابه لامن[1] جهة الجواب ، بل من جهة العطف: وتلك المتابعة محصورة فى آيتين : الأُولى قوله جَلَّ من قائل : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[2] » والثانية قوله تعالى : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[3] » وإذا كان الجواب مُمْتَنِعًا فيما قُرِىء منصوباً ومرفوعاً سقط الاحتجاج بالآية وامتنع كون الكلمة سبباً .

فأقول والله المُوَفِّق : إن هذه المباحثة غريبة . وأهل العربية يُجْرون الأجوبة تارة على الألفاظ باعتبار معانيها ، وتارة على
٥٢ ظ صُوَر الألفاظ المجرَّدة عن معانيها ، مثال ذلك قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا[4] ». وقع الجواب مُرَتَّباً على صورة لفظ الاستفهام مُجَرَّدا عن معناه . ومعنى الكلام أنهم ساروا فنظروا ، وذلك خَبَرٌ مَحْض ليس من الاستفهام فى شىء . فإن ظُنَّ الفاء عاطفة لصلاحيتها مع حذف النون للعطف والجواب فكيف تُجْعَل متمحِّضة للجواب مع هذا

= له القفطى ترجمة مطولة فى إنباه الرواة (ج ٢ ص ٢٥٦ : ٢٧٤) وممن ترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد (ج ١١ ص ٤٠٣ : ٤١٥) والسيوطى فى بغية الوعاة (ص ٣٣٦ : ٣٣٧) وياقوت فى معجم الأدباء (ج ١٣ ص ١٦٧ : ٢٠٣ . (ع)

(١) هوأبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبى توفى سنة ١١٨ هـ . قال فيه أبو على الأهوازى كان إماماً عالماً ثقة فيما أتاه حافظاً لما رواه متقناً لما وعاه عارفاً فهما فيما جاء به صادقاً فيما نقله . ويقول ابن الجزرى إنه كان إمام أهل الشام فى القراءة وانتهت إليه مشيخة الإقراء بها وإن أهل الشام قاطبة لا يزالون على قراءة ابن عامر انظر ترجمته فى غاية النهاية فى طبقات القراء تحقيق برجستراسر – القاهرة سنة ١٩٣٢ م (ج ١ ص ٤٢٣ : ٤٢٥ ، رقم ١٧٩٠) (ع) . (١) فى ج : إلا من (٢) سورة يس آية ٨٢ (ع) (٣) سورة النحل آية ٤٠ (ع) (٤) سورة يوسف آية ١٠٩ (ع)

الاحتمال ؟ دفع ذلك بما لا لبْسَة فى كونه جواباً وهو قوله جَلَّ من قائل : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ[1] ».

وإذا وَضَح ذلك رُدَّت مسألتنا إلى هذه القاعدة ، وكان الجواب جارياً على صيغة الأَمر فقط من غير تَعَرُّض لمعناه .

قال سيبويه : شُبِّه ترتب المأْمور على صيغة لفظ الأَمر فى العُرْف بترتب المقدور على تأْثير القدرة فيه ، إذ أهل العُرْف يقضون على أَن من أَمر شخصاً بالقيام فأَوجده عند أَمره أَن قيامه مُسَبَّب عن صيغة الأَمر وأَن لفظ الأَمر سبب[2] لقيامه ، وهو فى الحقيقة مُسَبَّب عن[3] الإرادة التى دَلَّت صيغة الأَمر عليها ، يدل على ذلك أَن السَّيِّد إذا أَمر عبْده بأَن
٥٣ و يفعل فعلاً ، وعلم العبد أَن السَّيِّد لا يريد منه فِعْلَ ما أَمره به ، فإذا فعله العبد عُدَّ مخالفاً للسيِّد ملوماً من جهته ، فإذا للمأْمور سببان أَحدهما : حقيقى وهو الإرادة وهو السبب البعيد ، والثانى : صيغة[4] الأَمر فى العرف الدالة على الإرادة فتعود حينئذٍ القاعدة نفسها فى إحالة الحكم على السبب القريب[5] .

فقد ثَبَت حينئذٍ بما ذكرناه أَن أَهل العُرْف يعُدُّون الكلمة المأْمور بها ويحيلون الحكم عليها ويجعلون ما يقع بعدها مُسَبَّباً عنها وإن كان له أَسباب حقيقية أَبعد منها ، وذلك عين[6] ما بيَّنَّاه أَولاً . وإنما تعلق مُورِد هذا الإشكال بصناعة

---

(١) سورة الحج آية ٤٦ (ع) . (٢) فى ج : سبيل (٣) فى ب : على
(٤) صيغة ، لم ترد فى ج (٥) القريب لم ترد فى ب (٦) فى ب و س : غير ـ

عربية . وقد أمكن رُدَّ ذلك إلى قواعدها ، فحينئذٍ يسقط الإشكال يقيناً ، ويسقط خيال مَنْ ظَنَّ أن قراءة ابن عامر

٥٣ ظ فيما تتمحَّض الفاءُ فيه جواباً عَسِرة الرد إلى الأُصول العربية وقواعدها ، كقوله عز وجل سبحانه : « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُن فَيَكُونَ[1] » ونظائر ذلك مما انفرد بقراءته منصوباً ، بل القراءُ محْجُوجُون من جهته بقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ[2] » ولا وجه لإجماعهم على النصب وجعل الفاء جواباً إلا إحالة على وجود صيغة الاستفهام فقط من غير نظر إلى معناها كما تقدم .

وبهذا التقدير والإلزام لايتجه على ابن عامر إشكال البتة.

* * *

فليتأمل الناظر حُسْن هذا الإعراب والإغراب مُعَظِّماً هذه الشريعة المحمدية المُؤَيَّدة بأفصح الأنبياء لهجة وأصدقهم[3] حُجَّة إذا نطقت جاءت بكل غريبة ، وإن سكتت جاءت بكل غريب ، وليعجب من طائفة تتمسك بمثل هذا النص الواضح فهمه وتأويله .

---

(١) سورة البقرة آية ١١٧ (ع)

(٢) سورة الحج آية ٤٦ (ع) .

(٣) ف ج : أبلغهم .

هذا آخر ما أردناه ووعدنا به فى بيان عدم دلالة النصوص على إلهيته وعدم حملها على ما يَرُدُّه صريح العقل والجمع بين ما يعتقدون مباينته قاصدين بذلك وجه الله ، جعلنا الله ممن اهتدى بنور هدايته ، وعُصِم عن الخطإ فى القول والعمل بتوفيقه وعنايته ، وصلواته على خير خَلْقه محمد وآله وصحابته ٤

نَجَز الكتاب بكماله